جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

# منهج الدعوة الاسترادي

## « دراسة تأصيلية »

تأليف الأستاذ الدكتور

**أحمد إسماعيل أبو شنب**

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

# المُقَدِّمَة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن نهج نهجه واتبع ملته واستمسك بكتاب ربه وسنته إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فنظراً لحاجة العمل الدعوي إلى القواعد الضابطة والمنظمة للممارسات الدعوية النظرية والتطبيقية في ميادين الدعوة المختلفة، ونظراً للضرورات الفكرية التي يفرضها الواقع الفكري المعاصر، حيث التحديات الكبرى والمهام الجسام المفروضة على الدعاة إلى الله تعالى في معالجة إشكالياتها، ومحو آثارها السلبية، ونظراً لأن المعالجات لقضايا الدعوة المنهجية تفتقد كثيراً من التصعيد والضبط في أطر منهجية علمية تحكم صياغة المنظومة الدعوية والداعي والمدعو والمدعو إليه، والمدارس والمؤسسات، والوسائل والقنوات حتى تفرز في النهاية عملاً مسئولاً متميزاً وفق مبادئ منهجية فكرية ضابطة وهادية.

ونظراً لأن الساحة الفكرية تنطوي الآن على خلط ولبس وتداخل في تحرير المفاهيم والرؤى المنهجية لأنها مازالت بكرة وخصبة، رأيت أن من الواجب الرسالي والعلمي المنوط بي أن أتقدم بهذه الأطروحات المنهجية بغية الإصلاح الفكري والعلمي والنهوض بالواقع الدعوي على أنها تمثل انطلاقة لرؤى منهجية أخرى توسع من مفاهيمها ومفرداتها وقضاياها، أو تضيف إلى ما

وفقنا الله تعالى إليه من رؤى وأفكار وتصورات، انطلاقاً من مسئولياتها وواجباتها الدعوية، وأملاً في تصحيح المسار لدى الأطياف والتيارات والاتجاهات الدعوية الموجودة على الساحة الدعوية، ودعماً للأزهر الشريف كمؤسسة دعوية رائدة في العالم الإسلامي. وفق الله قادته المخلصين وعلمائه المهديين إلى ما فيه الخير للدين والدنيا والآخرة.

ثم أتقدم بهذه الدراسة المنهجية بعنوان: «**منهج الدعوة الاسترادي دراسة تأصيلية**».

*أ. د / أحمد إسماعيل أبو شنب*

**أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية**
**بكلية أصول الدين والدعوة بطنطا**
**جامعة الأزهر**

# قواعد منهج الدعوة الاستردادي

## قواعده وخصـائصــه

### مفهـــوم المنهـــج الاســـتردادي:

أقصد به ذلك المنهج المتبع في دراسة تاريخ وأحـــوال الأمـــم والشـــعوب والجماعات البشرية بقصد معرفتها ومعالجتها والاستفادة منها. وهو مفتقر إلـــى مجموعة من الحزم الضابطة التي تمثل عناصر قاعدية تقعد لعملية الاســـترداد وتضبطه وتهدي المستدلين به إلى المنهج الأمثل في التناول والمعالجة.

هناك العديد من القواعد العلمية المنهجية التي يرتكز عليها مـــنهج الـــدعوة الاستردادي، كما أن هناك العديد من الخصائص التي تميزه عـــن غيـــره مـــن المناهج الدعوية الأخرى نوضحها فيما يلي:

# المبحث الأول

# قواعد المنهج الدعوي الاسترادي

**نجمل قواعد منهج الدعوة الاسترادي فيما يلي:**

١- السرد والتوثيق.

٢- المقارنات النصية.

٣- فقه المضامين الروائية.

٤- تجريد الأحداث والوقائع التاريخية.

٥- استنطاق النصوص وتجنب الإملاءات والغرض المعرفي.

وفيما يلي نحرر – تفصيلاً – المفاهيم الدلالية لهذه القواعد كحزمة من الضوابط المنهجية للمعرفة الناتجة عن قراءات التاريخ وتأملاته، وما يتضمنه من قيم معرفية، وتجارب إصلاحية تستكشف عبق التاريخ، وفهم سننه وقوانينه، ومعرفة «الثوابت» و«المتغيرات» والقيم المعرفية المكتسبة التي تهدي العقل إلى آفاق التاريخ، واستشراف المستقبل، وأهمية ذلك لإنضاج العمل الدعوي وضبط الممارسات الدعوية على الساحة في العصر الحاضر.

## أولاً: السرد والتوثيق.

ويعنى بهذه القاعدة تتبع مساقات الأحداث والظواهر التاريخية، وجمع أطراف الحدث والظاهرة في إطار نشيج معرفي يخلص لقيم المعرفة التاريخية، وتفهم قضايا التاريخ، ومن لوازم هذه القاعدة المعرفية عدم إخضاع الحدث التاريخي لعمليات إقصاء وإزاحة لبعض أطرافه، أو للحزم الضاغطة التي أدت إلى حدوثه وبروزه، أو لعناصره البنائية التكوينية.

كما تعني عدم إخضاع وعائه الزمني ومساقاته التاريخية وملابساته لتلك

العمليات وفق منهجية انتقائية تخدم الفكرة والتوجيه في دراسة الحـدث وتفهـم قضايا التاريخ، ولا تخدم «الحـدث» التـاريخي أو الظـاهرة التاريخيـة فـي جوهرهما، كما تعني عدم إخضاع روايات الحدث – كوعاء دلالـي مضـاميني يحمل دلالات الحدث ومضامينه – لهذه الانتقائية، أو لتلـك الإزاحـة، وذلـك الإقصاء، دعما لمسارات مغرضة في دراسة التاريخ كتلك التي تخضع التـاريخ لتفسير مادي أو علماني أو إلحادي أو منهجي أو طائفي.

على أن الانتقائية التاريخية تتمثل في إحدى الصور التالية أو فيها مجتمعـة ومنها ما يلي:

١– بتر النصوص وانتزاعها من مساقاتها بما يخـدم الأهـداف المعرفيـة المغرضة.

٢– الاعتماد على النصوص الضعيفة والمتروكة والمرفوضة أو المجهولة في بيئة الحدث.

٣– لي عنق هذه النصوص وتطويع دلالتها قسراً لخدمة التوجه.

٤– عزل بعض النصوص الروائية للحدث عن سائر نصـوص الروايـة المختلفة بدلالاتها المتعددة ومضامينها المتنوعة، وهو ما يمكن أن نطلق عليـه «هدم نسيج الحدث أو الظاهرة» أو «عنكبة أنسجة الحدث» أي جعلهـا واهيـة كنسج العنكبوت وهذا يؤدي إلى اغتيال الحدث التاريخي ذاته، وتغييـب العقـل الواعي لهذا الحدث، وإثارة سحب من الضباب المتكاثف حول روايات الأحداث التاريخية والتي أطلقت عليها «أوعية الحدث الدلالية».

٥– الاعتماد على النصوص المختلفة أو المصنوعة أو الموضوعة حـول صورة الحدث.

ولا تعدو الانتقائية كونها تزييفـاً للتـاريخ وتشـويهاً لحقائقـه وانحرافـاً

بالمسارات المعرفية التاريخية القيمية إلى مستنقع معرفي آسن تتصاعد فيه «الجدلية التاريخية» وتغيب عنه الدراسة الواعية لمقاصد دراسة الأحداث والظواهر والوقائع وعبرها وعظاتها.

كما تعني هذه القاعدة «السرد والتوثيق» الاعتماد الكلي على وثاقة النص وصحته وقوته وكونه مظاناً للحجة والدليل والبرهان التاريخي الذي يستنطق الواقع بدلالات يقينية، لا ظنية وقطعية لا احتمالية، وإعمالاً لمبدأ الأمانة العلمية التي تقتضي عدم تزييف الوعي وتشويه حقائق التاريخ، ويمكن أن نطلق «وثاقة النص التاريخي» «الانتخاب الطبيعي للنص التاريخي» كوعاء أمين للأحداث والوقائع والظواهر التاريخية. وهذا «الانتخاب» لا يتعارض مع إنكار النزعة الانتقائية، فالانتخاب الطبيعي للنص يعني انتزاع الأقوى والأصح والأوعى من الأدلة ودلالاتها في معرض دراسة الحدث بخلاف الانتقائية التي تعني اختيار ما يخدم توجيه البحث من النصوص وليس الحقيقة.... فالانتخاب الطبيعي يركز على «الحقيقة المطلقة» للحدث، أما الانتقائية فتركز على «الحق المدعي» والتفسيرات المتوهمة للوقائع والأحداث والظواهر التاريخية.

## ثانياً: المقارنات النصية.

ويقصد بهذه القاعدة ترتيب النصوص التاريخية وفق منهج الأولويات، ثم مقابلتها ببعضها ومقارنتها منطوقاً ومفهوماً في إطار فقه الموازنات والترجيحات حتى تتحقق مصداقية فقه الحدث أو الواقعة أو الظاهرة التاريخية، وتتناسب المقارنات النصية تناسباً طردياً مع عملية «الانتخاب الطبيعي للنصوص» – أو بالأحرى – الانتخاب الفوقي للنصوص الذي يحقق سيادة النص وسيادة دلالاته الطبيعية وسيادة الحقائق التاريخية الماثلة في ثناياها... فكلما قويت المقارنات النصية قويت عملية الانتخاب الدلالي، والعكس صحيح.

على أن هاتين العمليتين متداخلتان إلى حد كبير بحيث يمكن اعتبـار كـل منهما مقدمة للأخرى وناتجاً لها، فالباحث في هـذه القضـايا ينتخـب الأدلـة ليقارنها، ويقارنها لينتخب الأقوى دلالة والأمضى حجة، وبين هاتين العمليتـين تتضح الخبرات المعرفية لترشيد أحداث التاريخ ودراستها واسـتخلاص قيمهـا ودلالاتها.

وتتضمن العمليتان معا اتجاهاً كميـاً ونوعيـا لعمليـات مـن الإزاحـات والإقصاءات النصية المتعددة لتقوية الانتخاب الدلالي ومقارنة النص، والتي لـم يكن من الممكن تعبيرها تعبيراً صادقاً عن أنسجة الحدث ومنطوقـه ودلالاتـه، كإقصاء الأدلة الضعيفة والموضوعة و«الملفقة» والشاذة... وهذا النـوع مـن الإقصاء يطلق عليه ترشيد عملية «الاستدلال التاريخي» غي دراسـة الوقـائع والظواهر والأحداث التاريخية وهو يناقض «الإقصاء المغـرض» و«الإزاحـة المغرضة» للنصوص التي تثبت بالضرورة عكس المطلوب إثباته الأمر الـذي يدعم التحكم في مسارات البحث التاريخي، وفقه النوازل والأحداث.

وتقتضي العمليتان معرفة مراتب الأدلة من حيث القوة والضعف، والصحة والوضع، والثبوت والنفي، ومراعاة الترتيب الرتبي من حيث الأولـى صـدارة والواجب تأخيره رتبة، وتقدير رتبية ما بين هذا وذاك.

ويترتب على هذا إسقاط بعض أطراف الحدث أو الواقعة وبعض مكونـات الظاهرة التاريخية التي تتقاصر عن الثبوت في معرض النقد لكونها مدسوسة أو مركبة في مساقات التاريخ لا في مساقات الحدث وعناصره التكوينية. ذلـك أن المقارنة النصية صورة من صور النقد الموضوعي لروايات التاريخ ومروياته، وعملية تضخم من نفايات التأريخ من جهة، ومن جهة أخرى تعظـم الروايـات الدالة على صدق الحدث بطريقة كمية ونوعية. فهناك كثـرة مـن الروايـات

التاريخية ساهمت في البنى التكوينية للحدث أو الواقعة أو الظـــاهرة التاريخيـــة وهي أبعد ما تكون عنها، وقد ألقت هذه الروايات على تلك الأحداث والظـــواهر والوقائع أعباءاً جعلت من تفسير التاريخ وفقهه ضربا مـــن «اللامعقـــول» فـــي بعض الأحيان هدد قناعات كثير من الباحثين بإمكانية وقـــوع الحـــدث، وأثـــار شكوكهم في مصداقيته، وتداعت إثر ذلك القيم المعرفية التاريخية المعبرة عـــن جوهر الحدث وقيمته، وتأتي عملية النقد الموضوعي لتنقذ ما تبقى مـــن صـــور الحدث وأطرافه الحقيقية، وتزيل عنه ما أثاره التأريخ المغرض من غبار.

## ثالثاً: تجريد الأحداث والوقائع التاريخية:

**يعني بهذه القاعدة ما يلي:**

١- إعلاء قيم النص الدلالية لوقائع التاريخ وظواهره وأحداثـــه علـــى أن النص يمثل وعاءاً دلالياً مضامينيا لها. أو بالأحرى تصوير الحدث أو الظـــاهرة أو الواقعة التاريخية من خلال مصادرها اليقينية الثبوتية قطعية الدلالة والحجـــة في إطار ما نطلق عليه عملية «التمحيص النصي» لأحداث التاريخ ووقائعه.

٢- تجريد الأحداث والظواهر والوقائع التاريخية من الإضافات التفســـيرية للمؤرخين والتي تتخلل عمليات التأريخ لها، تلك الإضافات التي يقصـــد منهـــا التأثير في صياغة عناصر الحدث وبنيته الأساسية، ومساقاته الجوهريـــة وفـــق رؤى وتصورات مغرضة تتحكم في صياغة التاريخ وفـــق إمـــلاءات قســـرية مغرضة توجه الأحداث على غير وجهها وتنحرف بها عن أوعيتها ومســـاراتها الواقعية كالتفسيرات المادية في مجال الاقتصاد والتي تحاول البحث عن جـــذور المادية في أعماق التاريخ الإنساني، وتحاول التأصيل للغرض القائـــل «البقـــاء للأقوى» وتختزل قيم التاريخ من قيم المادة، متجاهلة القيم الأخلاقية كأصل مـــن أصول التكوين الأممي الاجتماعي أو التكـــوين الفـــردي فـــي تـــاريخ تكـــوين

الجماعات البشرية والمجتمعات الإنسانية. ومن أمثلة ذلك التفسيرات السياسية التي تؤصل للنظريات القمعية الاستبدادية التسلطية، وتبحث لها عن بيئة مناسبة للنمو تحت رماد الأحداث التاريخية، ومنها تلك الرؤى والتصورات التي تؤصل لحتمية الصدام الحضاري كأساس لنظرية سياسية حديثة تبناها الصحفي الأمريكي هنتجتون في كتابه «صدام الحضارات»[1] لأحداث بؤر الصدام الدامي بين الإسلام والغرب. ومن هذه التفسيرات أيضاً التفسيرات الاجتماعية لأحداث التاريخ التي تتبناها الاتجاهات «الوجودية» التي تحاول التأصيل لمبدأ الحرية المطلقة للفرد في ممارسة حقوقه وإشباع رغباته والتي تولدت عنها الاتجاهات الاجتماعية «الإباحية».

كما أن هذه التفسيرات المغرضة للتاريخ تفسر تاريخ الأديان بما يحمل من رؤى متضاربة ومتناقضة ومختلفة لإثبات الزعم الباطل «بوحدة الأديان» بهدف إقرار كل المتدينين على نزوعاتهم ومساراتهم التعبدية مع تناقض رؤاهم وتصوراتهم وطقوسهم[2] بغض الطرف عمن يعتقد بإله واحد كالمسلمين، أو بإله خاص كاليهود، أو بثلاثة مركبة في وحدة كالنصارى وقدماء المصريين، أو بإلهين الزرادشتية، ويرون أن يسووا بذلك بين من يعبد الله تعالى ومن يعبد الأوثان، وبين من يعبد الإله الحق ومن يعبد البشر، وبين من يوحد الله تعالى ومن يثلثه!! إنها الجدلية الدينية التاريخية القائمة على مبدأ فاسد هو «تكافؤ

(١) وقد ألفت بحثاً في نقد هذه النظرية المغرضة، نشر بحولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا.

(٢) راجع أديان العالم للبروفسور د. هوستن سميث، أستاذ الفلسفة وعلم الأديان في عدة جامعات أمريكية – ترجمة سعد رستم ص ١٢، ١٣ – دار الجسور الثقافية، ط: ١/١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

الأدلة»[1]، أي استوائها في الدلالة وتكافؤها في الاستدلال، وهذا التفسير التاريخي المغرض لمسارات التعبد والتدين الإنساني عبر حقب التاريخ ينقض الرسالات الإلهية التي جاء بها الأنبياء جميعاً والتي تقرر وحدانية الله تعالى، كما تتناقض مع صحيح المعقول.

ومن ذلك أيضاً إخضاع الدين للتفسير المادي للتاريخ والذي ترتب عليه الإيمان المطلق بالحس المادي وإنكار الغيب جملة وتفصيلاً، بل إنكار الإله ذاته كواحدة من أخص قضايا الغيب، مما ترتب عليه ذيوع النزعات الإلحادية[2].

وكما أن نزعة الجدلية الدينية في إطار المسارات التاريخية للتدين والأديان لها من الخطورة ما يجعل من الصعوبة في ظلها معالجة التناقضات الحادة والصارخة بفعل التحريف أو الوضع، فإن بزوغ مبدأ «اللا أدرية» كرد فعل للجدلية الدينية[3] التاريخية في الأديان له من الخطورة ما يربو على خطورة تلك الجدلية؛ لأنه يغلق الباب كلياً دون دارسة تاريخ التدين ودراسة الظواهر

---

(١) راجع الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، تحقيق د. أحمد السيد سيد أحمد علي جـ ١ ص ١٤ وما بعدها – المكتبة التوفيقية – القاهرة – بدون تاريخ.

(٢) راجع في هذا كتاب: الدين بحوث ممهدة لدراسة الأديان. د. محمد عبد الله دراز ص ٣٧، ٣٨ دار القلم للنشر والتوزيع – القاهرة – الأزهر، ط: ١٤٢٤/٥هـ – ٢٠٠٣م، والأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام، د. علي عبد الواحد وافي ص ١٢٣ – ١٣٠ نهضة مصر ١٩٨٤م. وراجع: التفكير الديني في العالم قبل الإسلام – مطالعة في مكتبة علماء الملايو د. جامع أورانج كاي رحمات بن داتو بحر الدين، عرض وترجمة وتعليق د. رءوف شلبي – دار الثقافة – الدوحة ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، وراجع: الإنسان والأديان دراسة مقارنة د. محمد كمال جعفر ص ٢٠٨ وما بعدها – دار الثقافة – قطر، ط: ١٤٠٦/١هـ – ١٩٨٥م.

(٣) الدين بحوث ممهدة لدراسة الأديان د. محمد عبد الله دراز ص ٣٨.

الدينية في إطار حركة التاريخ وتفسيرها وفقه السـنن الإلهيـة فـي الأفـراد والمجتمعات والأمم وتفسيرها وتعليلها... ولو قُدّر لهذين الاتجاهين أن يسـودا لكانت حركة التدين في التاريخ الديني مرهونة باتجاهين، اتجاه يقر التناقضـات الدينية ويغلق مسارات الترجيح لبيان الصحيح من الخطأ، واتجاه يتجاهـل فقـه الظواهر الدينية التاريخية، مما يجعل تحرير الاعتقاد الصحيح مـن مسـارات التناقض أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلا.

بيد أن الله تعالى قيض للحق قرناء فطنين جعلوا مـن الوسـطية الدينيـة والعقلانية مذهبا لتفسير تاريخ التدين، وفقه الظواهر الدينية يقرون مـن خلالـه أصول الاعتقاد الصحيح من خلال حركة نقدية واعية لدراسة تاريخ الأديان بما فيها دعوات الأنبياء والمصلحين عبر مراحل التاريخ، فأقروا الحق وانتصـروا له وبينوا صور التحريف والغلو في الدين. وأبطلوها، وقد برز هذا الاتجاه فـي الوسط الإسلامي وأيضاً في الوسط الغربي، لـدى بعـض العقـلاء المعتـدلين الباحثين عن الحقيقة المطلقة.

وعلى الدعاة والدارسين لتاريخ الأديان أن يـدركوا قيمـة هـذه القاعـدة وأهميتها للتمييز بين المعتقدات الصحيحة والخاطئة، وتصحيح مسارات الاعتقاد والتدين وترشيدها وتنقيتها من الأساطير والخرافات والأوهام.

### رابعاً : فقه المضامين الروائية.

ويعني بهذه القاعدة تحرير عناصر الحدث أو الظاهرة أو الواقعة التاريخية بمختلف دلالاتها لإثراء عملية تفسير التاريخ، ولا مريـة أن نضـوج التفسـير التاريخي يتناسب طرديا مع فقه المضامين الروائيـة قـوة وضـعفا، كمـا أن استبصار التاريخ يتوقف على تحليل مفرداته الدلاليـة وتحريرهـا مـن قيـود المذهبية الغالية أو النزعات المفرِّطة في استكشاف غياهب التـاريخ واسـتكناة

أحداثه وظواهره، ففقه المضامين الروائية هو الذي ينثر في آفاق المعرفة عبق التاريخ ويستشرف بها آفاق المستقبل... إن إنضاج التصور المستقبلي هام لإنجاز الخطط الإستراتيجية للخروج بالأمم من أزماتها الراهنة، إذ لا مستقبل لمن لا يقرأ التاريخ، كما أنه لا يمكن اكتساب خبرات المعرفة التاريخية بدون استبصار عبر التاريخ وفقه دلالاته، واستيعاب عظاته واستيضاح حججه وبيناته، واستظهار سننه وآياته.

إن تغييب فقه المضامين الروائية لأحداث التاريخ وظواهره يعني الاتجاه الفائق نحو «الانعزالية التاريخية» كما يعني اجتثاث حركة التاريخ من جذورها وإذابة جسور المعرفة التاريخية التي تستوعب في جنباتها مسارات التاريخ... ومن يحمل بيده رواية تاريخية دون أن يعني بفقه مضامينها كمن يحمل شمعة غير مضيئة لا تكشف له جنبات الطريق، ففقه المضامين الروائية هو وقود حركة إنضاج الدراسات التاريخية في عجلة تتجه بقوة صوب المستقبل لصياغة مستقبل البشرية.

وهذا وذاك يضعانا أمام نظريتين يمكن أن نسميهما بما يلي:

**الأولى:** نظرية «الكمون التاريخي».

**الثانية:** نظرية «الانبثاق المعرفي التاريخي».

فالنظرية الأولى «الكمون التاريخي» تجعل حركة التاريخ راكدة آسنة في زاوية الحدث، أو نابعة في مواطنه بلا حراك كالعناصر الكيميائية الخاملة التي تسلب من المادة عوامل فاعليتها. وفي إطار «الكمون التاريخي» تتلاشى الجسور وتذوب الجذور المعرفية.

أما النظرية الثانية «الانبثاق المعرفي التاريخي» هي التي تجعل من التاريخ مادة تفاعلية نشطة، وتجعل من عناصر الحدث التاريخي وقوداً نشطاً

فعالاً كالوقود النووي يدفع بعجلة التاريخ نحو المستقبل بقدرة فائقة.

**ويشترط لفقه المضامين الروائية ما يلي:**

١- إزالة معوقات الإدراك وتتضمن التجرد من الهوى والأمانة في العرض والتناول.

٢- معرفة مساقات الحدث أو الظاهرة وملابساتهما.

٣- معرفة أسباب الحدث أو الظاهرة.

٤- الفقه المقاصدي للأحداث والظواهر الروائية التاريخية.

٥- عدم الاقتصار على مجرد السرد التاريخي للحدث.

٦- عمق التأمل ودقة التحليل.

٧- التزامن التاريخي لتفسير الأحداث والظواهر التاريخية، وهذا الشرط يختص بالتأريخ الآتي للأحداث، أي التأريخ للحدث وقت حدوثه، إلى جانب ما سبق.

## التحديات التاريخية لفقه المضامين الروائية:

١- نضوب الروايات التأريخية حول الحدث سواء أكان تأريخاً لحدث وقع في الأمس الدابر أم إلى الماضي البعيد، مما يجعل زاوية النظر إلى الحدث أو الظاهرة التاريخية زاوية حادة مما يقلل المساحة الأفقية لدراستهما.

٢- تضارب الروايات التاريخية وتناقضها حول حدث معين مما يلقي بأعبائه على فقه المضامين الروائية ودلالاتها التاريخية.

٣- فقدان التزامن التفسيري للحدث او الظاهرة التاريخية لاسيما التفسير الآتي للوقائع والظواهر والأحداث، وليس بخاف أهمية التزامن التفسيري لمعطيات الأحداث التاريخية في تفعيل حركة التاريخ؛ لأنه يعبر بمصداقية عن الحدث في إطار المعايشة أو المشاهدة أو القرب، مما يعطينا دلالات أدق

وتحليلات أعمق لمشاهد التاريخ وفصوله وعناصره إذا ما وضعنا في الاعتبار أن الحدث الآتي هو أقصر الظروف الزمنية أو الأوعية الزمنية وقتا إذا ما قورن بالماضي والمستقبل فإن امتداد الزمن فيهما أوجب من الآتي أو الحاضر.

٤- الغموض الذي يكتنف بعض الأحداث التاريخية والناشئ عن التكتم والسرية سواء في أحداث التاريخ الماضية أم الآتية، مما يؤدي إلى فقدان الرواية الدقيقة المصورة للحدث بعناصره، وهذا يدفع بدوره إلى التكهنات والإسقاطات الذاتية على تفسير الحدث بما لا يخرج عن إطار الظن والخرص، وثمة العديد من الأحداث والوقائع والظواهر التاريخية في تاريخنا المعاصر حيكت مشاهدها في إطار السرية الاستخبارتية في ظل تنامي الأحداث ذات البعد الاستخباراتي في العالم، الأمر الذي يعيق حركة تفسير التاريخ، بل يعيق حركة التأريخ ذاتها.

٥- الإيقاعات السريعة للأحداث في العالم والناشئة عن التطور التكنولوجي المذهل في مجال الصناعات العسكرية، مما يلقي بأعبائه على حركة التأريخ، لاسيما إذا كانت هذه الأحداث مجهولة المصدر وإن اتسعت رقعة الحدث أو أوعيته المكانية، وهذا ينعكس سلباً على عمليات الفقه الروائي لمصادر التاريخ وقضاياه.

٦- الاختلاق والوضع في صياغة بعض مشاهد التاريخ وظواهره، مما يلقي بأعبائه على تفسير العناصر الروائية للحدث وفهم مدلولاتها ومعطياتها.

٧- تفسير المعرفة التاريخية في ضوء التراكمية الدائرية المنفصلة، أي اعتبار الأحداث التاريخية والظواهر والسنن حلقات معرفية دائرية منفصلة بحيث تمثل كل دائرة منها جانبا من جوانب التاريخ ودوراً من أدواره في إطار انقطاع المؤثرات التاريخية والتدخلات الفاعلة بين هذه الدوائر.

وكل هذه التحديات تقلص من المساحات المعرفية التفسيرية لحركة التاريخ أمام الدعاة والمصلحين في مختلف ميادين العمل الدعوي والإصـــلاح الاجتمـــاعي وكذا السياسي، وتلقي بلا ريب بظلال من الشك والتردد والحيرة في فهم دلالات الأحداث والظواهر ومعطياتها التاريخية، كما أن هذه التحديات تعطي قيما سلبية للتاريخ وتصور ديناميكيته أي حركته صور «استاتيكية» ساكنة كامنـــة تغتـــال عناصر الحدث النشطة والفاعلة في حركة التاريخ الواعي.

**خامساً: استنطاق الواقع التاريخي وتجنب الفرض المعرفي.**

من قواعد المنهج الاسترادادي «استنطاق الواقع التاريخي وتجنب الغـــرض المعرفي» ويعني بهذه القاعدة استلال عناصر الأحداث والظواهر التاريخية من الواقع وتجنب الإملاءات والغرض المعرفي في تصورها وصياغتها، وغيـــاب هذه القاعدة عن فهم معطيات التاريخ وحركة التأريخ للحدث أو الظاهرة يعطـــي مساحة كبيرة للتخيل في صياغة التاريخ، مما يفعّل روافد العناصر الأســـطورية اللامعقولة واللاواعية في حركة التأريخ، الأمر الذي يجعل موضوع الحـــدث أو الظاهرة التاريخية وصياغته فناً من فنون الأسطورة ويسلب منهمـــا واقعيتهمـــا ومصداقيتهما... ولا يعدو الغرض المعرفي في إطار فهم حركـــة التـــاريخ إلا مزيداً من التدخل اللامسؤول والطرح القسري على جوهر الحـــدث ومضـــامينه ومعطياته الدلالية.

**ويشترط لفاعلية هذه القاعدة ما يلي:**

١- توثيق الروايات التاريخية.

٢- إخضاع الروايات التاريخية لعملية نقدية قويـــة تعمـــل علـــى إزاحـــة عناصر الحدث اللامعقولة من جوهر الأحداث ومضامينها.

ولا مرية أن هذه القواعد في مجملها ضرورية وهامـــة لتفســـير التـــاريخ

بأحداثه وظواهره وضبط حركته التأريخية وتصور فصل إحداها عن الأخـــرى يخل بمقاصد دراسة التاريخ، ويقذف بكثير من قضاياه في دائـــرة «اللاوعـــي» و«اللامعقول».

ولا يخفى ما لهذا المنزع من خطورة بالغة على مسار الدعوات الإصلاحية وممارسات الدعاة العملية مثلما لا تخفى أهمية هذه القواعد في إثراء التجـــارب الدعوية وإنضاج خبرة الدعاة باستبصار حركة التاريخ وتوظيفها لإنجاح عملهم الدعوي وتفعيل اتجاهاتهم الإصلاحية لبناء الإنسان بناءاً قيمياً معرفياً.

وفيما يلي نتحدث بمشيئة الله تعالى عن خصائص منهج الـــدعوة الاســـترادي وأهميتها للعمل الدعوي وفقه مسارات التاريخ وقضاياه.

# المبحـــث الثانـــي

## خصائص منهج الدعوة الاستردادي

يختص منهج الدعوة الاستردادي بعدة خصائص تشكل ملامحـــه، وتعـــين على فهمه، من أهمها ما يلي:

١ – البناء المعرفي التراكمي.

٢ – إعلاء القيم التاريخية.

٣ – فقه الواقع الإنساني والكوني.

### أولاً: البناء المعرفي التراكمي.

يُعد «البناء المعرفي التراكمي» إحدى خصائص منهج الدعوة الاســـترادادي التي تشكل أطره وأطيافه ومجالاته، وملامحه، ويقصد بها: أن البناء المعرفـــي التاريخي بناء تراكمي سواء أكان كمياً أو نوعياً، بمعنى أن المعرفة التاريخيـــة تبدأ من اللحظة المتغيرة في أفق الحاضر في خط رجعي إلى بذور التاريخ فـــي الماضي السحيق لتمثل حقبها المعرفية دوائر متسلســـلة متقاطعـــة مترابطـــة لا تنفصم عراها على هذا النحو:

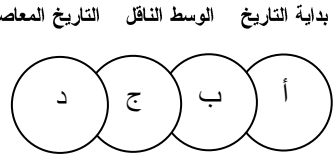


شكل (١)

١– فالدائرة (أ) تمثل مرحلة معرفية في تاريخ الإنسانية تتقاطع مع الدائرة (ب) التي تمثل مرحلة ثانية من تاريخها، والدائرة (ب) تتقاطع مـــع الـــدائرة (ج) التي تمثل مرحلة ثالثة من تاريخها، والدائرة (ج) تتقاطع مع الـــدائرة (د) التـــي تمثل مرحلة رابعة من تاريخها... وهكذا.

٢- وتمثل النقاط (س)، (ش)، (ص) محاور التقاطع والتداخل الحاد والفاعل بين هذه المرحلة المعرفية التاريخية، وهذا وذاك يقتضيان أن الدائرة الأخيرة (د) التي تمثل التاريخ الحديث لا يمكن عزلها عن الدائرة الأولى (أ) التي تمثل بداية التاريخ، وأن نقطة التقاطع المحورية الأخيرة (ص) لا يمكن فصلها عن نقطة التقاطع المحورية الأولى (س)، وكذلك سائر الدوائر ونقاط التقاطع المحورية الأخرى.

٣- على أن نقاط التقاطع المحورية بين الدوائر المعرفية الأربعة تمثل الكم المعرفي المؤثر في هذه الدوائر على نحو تصاعدي يبدأ من الماضي السحيق [الدائرة (أ)] إلى الماضي القريب [الدائرة (ب)] مرور بالحقب الوسطى أو البينية التي تمثل الدائرتان (ج)، (د) فيها العامل المشترك أو «الوسيط الناقل» للمعرفة التاريخية.

هذا ولا يمكننا تصور المعرفة التاريخية على شكل دائري متعدد منفصل كما هو الحال في هذا الشكل:

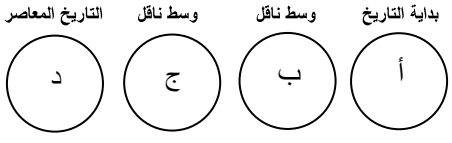


وذلك لأن هذا التسلسل المنفصم غير المتداخل يدل على ما يلي:

١- انعزالية حقب التاريخ، واعتبار كل حقبة معبرة عن ذاتها على نحو ينعدم فيه التأثر والتداخل التاريخي للأحداث والظواهر التاريخية بين هذه الحقب التاريخية المتتالية لا المتوالية[١].

٢- انعزالية المعرفة التاريخية في كل حقبة من هذه الحقب عن الأخرى.

---

(١) لأن لفظ «المتوالية» يعطيمدلول الانتماء والصلة وهذا غير متصور في هذا الشكل التوضيحي، أما لفظ المتتالي فيعطي دلالة الانفصال وانقطاع النسبة.

ويترتب على هذا التصور الانعزالي في التأريخ لحركة التاريخ وتفسير ظـــاهره ما يلي:

أ- قصور التفسير لحركة التاريخ الإنساني العام عبـــر حقبـــه المتداخلـــة بالضرورة.

ب- إسقاط المؤثرات المعرفية البنائية العامة في ظواهر التاريخ، وأحداثـــه ووقائعه.

ومعرفة أوجه التداخل الفاعل في البناء المعرفي عبر هذه الحقب، وعـــدم فهـــم عوامل قيام الحضارات وانهدامها، واستقامة الأمم وانحرافها.

ج- عدم فهم تاريخ دعوات الأنبياء والمصلحين ودورها في بناء الإنســـان واعتبارها حلقات منفصل بعضها عن بعض في تاريخ التدين عبـــر العصـــور، الأمر الذي يوقع تفسير التاريخ فـــي مـــآزق حرجـــة، لأن دعـــوات الأنبيـــاء والمرسلين عبر التاريخ تمثل وحدة الدين الحق من لدن بعثة نبي الله آدم (عليه السلام) إلى بعثة رسول الله محمد (ﷺ) إلى قيام الساعة، ويعني بوحدة الـــدين وحـــدة الأصول العقدية والتشريعية والأخلاقية، وكذا المصدرية التي تأسس عليها الدين الإلهي الحق، وقامت عليها دعوات الأنبياء والمرسلين والدعاة المصلحين مـــن أتباع الأنبياء ومن حذا حذوه.

وما يدعم تراكمية المعرفة عبر التاريخ قول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1]، وقوله

(١) سورة البقرة: ٢٨٥.

تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[1] وقول الرسول (ﷺ): «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم، الأنبياء إخوة لعلاتِ أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[2].

وهذا دليل على أن حلقات التاريخ، وحقبه المعرفية بما فيها من فصول ومشاهد لا يمكن فصل بعضها عن بعض، كما لا يمكن تفسير قضايا التاريخ وظواهره في إطار الفصل المعرفي، أو تقسيم التاريخ في إطار معرفي انعزالي.

إن «تراكمية المعرفة التاريخية» هي التي تبرز عوامل إثراء الثقافة الإنسانية والدينية عبر التاريخ، وتساعدنا على اكتشاف مساحات شاسعة من المجهول في الأفق المعرفي التاريخي لم يكن من الممكن اكتشافها في ظل «انعزالية الحقب المعرفية» كما أنها تحفز العقل على التأمل والنظر، وتكون بناءه المعرفي، وتعين الإنسان على تحليل مفردات التاريخ، واستيعاب أحداثه وظواهره الغابرة، استيعابا يمكنه من فهم الأحداث الآنية المنظورة، والمستقبلية «اللامنظورة» وفق إجراءات دقيقة من القياسات التاريخية والاستنباطات المعرفية في إطار المشاهدة والملاحظة والافتراضات العقلية والتصورات الذهنية [3]، والاستنتاجات المنطقية.

---

(١) سورة الروم: ٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله « واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت. . . » جـ ٢ ص ٤٤٩، حديث رقم (٣٤٤٣) – القاهرة – دار الحديث ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

(٣) أي افتراض وتصور تكرار الأحداث والوقائع والظواهر التاريخية في المستقبل إن تكررت أسباب حدوثها، كما يدل عليه قول الله تعالى مهدداً بني إسرائيل: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ

ولما كان الإنسان محور التاريخ والمؤثر في بنائه وتكوينه وصياغته، فـإن الأحداث والظواهر والوقائع التاريخية ما هي إلا بنات أفكاره ومظاهر أفعاله... وكما لم يكن من الممكن تصور وجود الإنسان مجزءاً –أي مقسماً إلى أعضاء– إلى أجزاء؛ فإنه من غير الممكن تصور تاريخه في أطوار معرفية، منعزلة عن بعضها، منزوعة الأوصال.

ولابد للدعاة إلى الله تعالى من أن يفطنوا إلـى أن المحـور الفعـال فـي المعرفية التاريخية أو في تاريخ المعرفة هو التواصل النشط في صياغة البنـى المعرفية المؤثرة بقوة في حركة التاريخ وصياغته عبر حقب معرفية تاريخيـة متواصلة غير منفصمة، كما أن عليهم أن يفطنوا إلى أن عرض تاريخ الـدعوة في صورة حلقات منفصلة يقلص من قدرات التجربة الدعوية لدراسـة حركـة التاريخ وتوظيفها لخدمة العمل الدعوي ويعمل تغييب القيم الدينية والإنسانية في فقه حركة التاريخ.

### ثانياً: إعلاء القيم التاريخية.

تعتبر خصيصة «إعلاء القيم التاريخية» إحدى خصائص مـنهج الـدعوة الإسلامية الاستردادي؛ ذلك أن التـاريخ وعـاء زمنـي يسـتوعب الأحـداث بمقتضياتها ودوافعها وأسبابها، ولا مرية أن تلك المقتضيات والدوافع والأسباب تحتوي منظومة القيم والمبادئ والأخلاقيات لكل أمة من الأمم أو مجتمـع مـن المجتمعات الإنسانية، على أن هذه المنظومة القيمية تعتبر معياراً دقيقـاً لقيـاس

---

﴿ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨] أي إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى الإهلاك والتدمير، ويراجع في هذا المعنى تفسير القرآن العظيم للإمام بن كثير، تحقيق/سامي بن محمد سلامة، جـ ٥ ص ٤٨ – دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: ٢/١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

حركة التاريخ، وضابطاً من ضوابط الجرح والتعديل – أو بالأحرى – الحكم على الآخرين بالاستقامة أو الانحراف... بالرقي الخلقي القيمي أو بالهبوط في مآسن القيم الهابطة. وإذا كان العقل ملهماً لبعض الأمم في وضع منظومتها القيمية، فإنه لا يمكن تصور انضباط هذه المنظومات القيمية بصورة مطلقة وذلك لما يلي:

١– قصور العقل البشري عن وضع منظومة قيمية كلية مطلقة لا تخضع للنقد، ولا ينتابها القصور، لأن مدارك العقل تعتمد على حواس إدراكية غير كاملة الإدراك.

٢– إن العقل من الممكن أن يلهم الأمم والأفراد ببعض القيم لكنها لا تمثل منظومة متكاملة، وقد شاهد التاريخ بعض المبادئ والأخلاقيات القيمية الفاضلة – كالكرم والشجاعة والنجدة وإغاثة الملهوف ونصرة المظلوم والعدل والدفاع عن العرض والأرض والمال والقبيلة والعشيرة، وقد حوى جلب الفضول الذي عقده حكماء العرب في الجاهلية وحضره الرسول (ﷺ) قبل بعثته وأثنى عليه بعدها قائلاً: «لو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت» – حوى بعضاً من هذه المبادئ القيمية، وإذا كان التاريخ قد شاهد هذه المبادئ الفاضلة في جملتها إلا أنه شاهد في بعض محاورها التفصيلية صوراً من الغلو في نظرية «المسؤولية والجزاء» فقد كانت القبيلة تقتل بالواحد قصاصاً ومثل القصاص بهذا في الجاهلية صورة من صور الإجحاف والظلم مع أنه يقصد به في جوهره إقامة العدل، لكن ما أقبح العدل الذي يتهدد حياة الآمنين المسالمين الأبرياء.

وفي العصر الحديث شهدت منظومة القيم صوراً عديدةً من صور الإجحاف واللامسئولية واللاوعي عندما اختزلت المادية القيم في المادة، وعندما اختزلت الشيوعية حق الفرد في حق الأمة، وعندما اختزلت الليبرالية أو

المذاهب التحررية القيم في الإباحية، ولم تستطع منظومة القوانين التي وضعتها الأمم في العصر الحديث صيانة الفرد والمجتمع بالصـورة الكاملـة، ومثلـت الثغرات القانونية ملاذاً آمناً للمجرمين والمفسدين لكـيلا يقعـوا تحـت طائلـة القانون، وفقدت نظرية «المسئولية والجزاء» كثيرا من مصداقيتها، وفرغت في كثير من الأحيان من مضمونها!!!

٣- إن العقل ليس معصوماً من مخالجات الخـواطر الفاسـدة والأهـواء المضلة التي تعوق إدراكه، وتلبس قيم الحق بالباطل، كمـا لا يحظـى نتاجـه الإدراكي بالقداسة التي تدفع الناس وتسوق الفطر السليمة إلى الخضوع الكامـل والانقياد الصحيح له، كما أن الخواطر التي تخالج النفس وتخامر العقل ليسـت معصومة من لمة الشيطان، فكم من حق استبيح تحت وطأة الباطل!! وكم مـن عرض انتهك باسم الحرية الشخصية!! وكم من بنت وئدت خشية الإملاق!! وكم من أناس أبرياء شوهت سيرتهم بالظّنة والتهمة!! بل كـم نبـي قُتـل بـالكبر والاستعلاء!! وكم من أمم أبيدت طمعاً في مقدراتها!! وكم مـن غنـي أطغـى وألهى وسلطان بغى وأفسد!! فالقول بالعقل المطلق مفسدةٌ وتضليلٌ وهـو فـي عرف الشرع تهويل أو تهوين؛ لأن العقل معوز إلـى مصـدر كامـل يضـبط مداركه ويصحح مساراته، ويلهمه رشده ويهديه سبل السلام.

وهذا لا يتوفر إلا للوحي الإلهي الحكيم الـذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ حكيم يصدر قوله عن حكمـة... وحميـد يستحق الحمد على الرشد والصلاح في الحال والمآل، أي يستحق الحمد على ما أنزل مما من شأنه هداية الناس إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وهذا هو طريق القيم الإلهية الهادية المرشدة، التي تحفظ العقل من الشطط، والقلب من الزيـغ، والفطر من الانحراف.

وقد وعى التاريخ كل هذه القيم الصالحة والفاسدة، ووعى آثار كل منها على الأفراد والجماعات، وعلى العقول، وعلى النفوس والفطر، وأبرز في ذاكرته الأوعى والأنفع والأصلح الذي استقامت به حياة الأمم، كما أبرز الضار والفاسد الذي انهارت به في حياتها منظومة القيم، والعقل قادر على تمييز المتناقضات وفهم المتقابلات، وقادر على الموازنة بين القيم النافعة والضارة في ضوء معطيات الوحي الإلهي وإخباره بتاريخ الأفراد والأمم، والشعوب في إطار مبدأ «المسئولية والجزاء».

وقد أثار القرآن الكريم في الأمة عقلها ووجدانها، وحثها على تأمل مآلات الأمم السابقة وحملها مسئولية التفريط في منظومتها القيمية إزاء محاولة بني إسرائيل تزييف التاريخ، واغتيال ذاكرته، وتغييب الوعي الإنساني، واختزال قيم التاريخ وحقائقه ومشاهده في قيم آنيةٍ مغرضة قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ

﴿ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾[1]، ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾، وقال الله تعالى – عمن جعل الملائكة إناثاً انطلاقاً من الهوى المطلق وإخضاع الحقائق العلوية للتفسير القسري الزائف لتاريخ الاعتقاد قال تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُمْ ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[2].

**وقد حاجج القرآن الكريم هؤلاء وأولئك بما يلي:**

١– نسبة العلم المطلق بحقائق الأشياء إلى الله تعالى وتعجيزهم عن الإحاطة بها.

٢– إنكار الله تعالى على هؤلاء تفسير وقائع التاريخ وفهم قضاياه رجماً بالغيب.

٣– جعل القرآن الكريم كتم الشهادة في القضايا قاطعة الدلالة من الله تعالى من أظلم الظلم.

وبهذا حَمَّل القرآن الكريم العقول والنفوس مسؤلية الإضلال بميزان الاعتدال العقدي والقيمي كما حَمَّلها مسئولية التفسير الخاطئ للتاريخ أو تحكم

(١) سورة البقرة: ١٣٥ – ١٤١.

(٢) سورة الزخرف: ١٩ – ٢٢.

النزعات المغرضة في صياغته والشهادة عليه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

## ثالثاً: فقه الواقع الإنساني والكوني.

يعتبر فقه الواقع الإنساني والكوني بحقائقه ودلالاته محوراً فاعلاً في صياغة التاريخ بعينٍ بصيرةٍ، وهو من إحدى خصائص المنهج الاسترادي الهامة في تفسير المعارف الإنسانية في إطار فقه دلالات الأحداث التاريخية والوقائع الحياتية ومعرفة ظروف الظواهر الإنسانية وملابساتها.

ولما كان فقه الواقع الكوني متعلق بفقه الواقع الإنساني من حيث فقه الظرف والمظروف ومعرفة العلاقات والوشائج البنائية والدلالية بينها أضيف فقه الأول: «فقه الواقع الكوني» إلى الثاني: «فقه الواقع الإنساني» على أنهما طرفا معادلة متفاعلان بقوة في فقه الواقع لما يلي:

١- إنهما يسهمان بفاعلية في فقه حركة التاريخ ومعرفة قوانينه الدقيقة وسننه الحكمية المشتقاة من الوحي الكريم المبارك.

٢- أنهما يعملان على استبصار الواقع برؤية دقيقة واستشراف المستقبل برؤية حكيمة.

٣- قوة العلاقة التأثيرية بينهما باعتبارهما طرفي معادلة متزنة في تفسير التاريخ.... في فقه الكائن والمكون، أو فقه الإنسان والكون، فالكون مؤثر بدلالات حقائقه في اعتقاد الإنسان، فهو معقل أسراره، والإنسان مؤثر فاعل في

---

(١) يراجع في هذا المعنى: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د/وهبة بن مصطفى الزحيلي جـ ١ ص ٣٣١ – دار الفكر المعاصر – دمشق، ط: ٢ ١٤١٨هـ، وزهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة جـ ١ ص ٤٣٢ – دار الفكر العربي – بدون تاريخ.

حقائق الكون، فهو كاشف دلالاتها، ومستبصر حكمها، وفقيه بَيِّناتَها، وربما كان هذا وذاك سر سر اقترانهما في كثير من آي القرآن الكريم، ومنها قول الله تعالى – في معرض إقامة الحجة على الخلق لاسيما المكذبين ومنكري البعث–:

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾(1).

**محاور فقه الواقع الإنساني والكوني:**

هناك عدة محاور لفقه الواقع الإنساني والكوني يجب معرفتها لفهـم هـذه الخصيصة من خصائص المنهج الدعوي الاستردادي أجملها فيما يلي:

١– فقه الطبيعة الرسالية «فقه الوظيفة الإنسانية والكونية».

٢– فقه السنن الإنسانية والكونية.

٣– فقه المضامين الرسالية.

٤– فقه المقاصد والغايات.

---

(١) سورة الواقعة: ٥٧ – ٧٤.

وسأوضح هذا بمشيئة الله تعالى فيما يلي:

## أولاً: فقه الطبيعة الرسالية.

إن فقه واقع الإنسان مرتبط في الآيات البينات بفقه واقع الكون، والنسبة بين هذين النوعين من الفقه مطردة. فلا يخفى ما فيهما من معرفة دلالات التسخير الكوني للإنسان واستفاده الإنسان بدلالات حقائق الكون الباهرة في رقيه الإيماني واستقامة نزوعه العقدي وسلوكه التعبدي... فقيم التسخير الإلهي ليست قيماً مادية وفقط، وإنما هي قيم مادية ومعنوية تجمع بين مظاهر الإنعام الإلهي وبين الرقي الروحي والقيمي للإنسان.

### الطبيعة الرسالية:

إن الإنسان والكون مربوبان لله تعالى مخلوقان له، وأنهما مفطوران على حالة من التعبد والانصياع لإرادة الله تعالى القاهرة، ومما يدل على هذا قول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[1]. وإن كان ظهور التعبد الكوني لله تعالى مخفي عن الإنسان يصعب عليه إدراكه لغياب فقه لغة الكون التعبدية. قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[2].

لكن ثمة فرقاً بين وظيفة الإنسان التعبدية وبين وظيفة الكون، فوظيفة

---

(١) سورة النحل: ٤٨ – ٥٠.

(٢) سورة الإسراء: ٤٤، ٤٥.

الإنسان التعبدية وظيفة رسالية أي وظيفة طوعية اختيارية قائمة على التكليـف، أي أنه قائمة على إرادة الإنسان الاختيارية وتحمل المسئولية والجزاء عن قـيم الالتزام بالمنهج الإلهي، أما وظيفة الكون التعبدية قائمة على التسخير المطلـق للكون بما فيه من صور وعناصر ومظاهر مادية، ولعلك تدرك معنـى الفـرق بين دلالة التسخير ودلالة التخيير، فهما مختلفتان من حيـث الطبيعـة الدلاليـة متفقتان من حيث المقاصد الغائية، أما اختلافهما من حيـث الطبيعـة الدلاليـة فيتمثل في أن ما تفطر عليه القوى العاقلة أو الإنسان الراشد من عقل وقـدرات إدراكية ومواهب نفسية وجسمية غير ما تفطر عليه القوى الكونيـة المسـخرة، ففطرتها فيما يبدو فطرة تسخيرية غير عاقلة أو مدركة منقـادة انقيـاداً قهريـاً قسرياً لا خيار ولا إرادة لها فيه.

وأنّ اتفاقهما من حيث المقاصد الغائية فلأنهما تؤديان معا إلى وحدة تعبدية انسجامية.... تجعـل الإنسـان والكـون.. المـدرك واللامـدرك... العاقـل واللاعاقل... في حالة انقيادية – شعورية كانـت أو لا شـعورية – لإرادة الله تعالى وحكمته البالغة ألا يعبد في كونه غيره.

وتتفق وظيفة الملائكة التعبدية مع وظيفة الكون من حيث كونهـا وظيفـة تعبدية قائمة على التسخير المحض الذي تتلاشى فيه الإرادات ويتـوارى فيـه الاختيار، وهي وظيفة تختلف – أيضاً – مع وظيفة الإنسان التعبدية القائمة على الاختيار المحض والإرادة الخالصة.. وإن كانت وظيفة الملائكـة فـي مبناهـا تختلف عن وظيفة الكون من حيث كونها قائمة على التعبد المـدرك والـواعي؛ لأنها قوى مدركة واعية؛ فإنها في إدراكها تختلف عن إدراك الإنسـان القـائم على الحواس، فإدراك الملائكة إلهام مطلق لا كسب فيه، أمـا إدراك الإنسـان فقائم على كسب الحواس وقد يرد فيه الإلهام الإلهي من باب التوفيق الحكيم إلى

عبادة الله تعالى الواحد، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[1].

وأما دليل الوظيفة الملائكية التسخيرية فمستفاد من قول الله تعالى حكاية عن ملائكته أخبرهم بجعله آدم خليفة له تعالى في أرضه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

أما دلالات وظيفة الكون التعبدية التسخيرية فمستقاة من قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾[3]، وأما دلالة وظيفة الإنسان التعبدية الطوعية ودلالة وظيفة الملائكة التعبدية القسرية القهرية فمستقاة من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾[4]، ومن قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي

(١) سورة محمد: ١٧.
(٢) سورة البقرة: ٣٠.
(٣) سورة الرعد: ١٣.
(٤) سورة الرعد: ١٥.
(٥) سورة الأنبياء: ٧٩.

مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

هذا ويعد تسخير الكون للإنسان من سابغ نعم الله تعـالى وعظـيم فضـله عليه، قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[2].

والكون مستودع الآيات البينات التي وضعها الله تعالى للإنسان تلهمه رشده إذا تأمل في دلالات قدرة الله تعالى فيها، وتذكره بهيمنة الله تعـالى وقاهريتـه وجبروته وكبريائه إذا ما فرط في جنب الله تعالى. فهي من دلالات التصـريف والتسيير والتيسير والتدبير الحكيم من الله تعالى العلي القدير.. وإن شئت فقـل: دلالات الجلال والجمال.

## فقه طبيعة الإنسان:

### أولاً: «محـور التكوين»:

#### أ- البنية التكوينية المادية:

يعتبر فقه طبيعة الإنسان التكوينية واستقراء أحوالها وآلاتها عبر التـاريخ من لوازم المنهج الاستردادي الموضوعية التي تفسر للإنسـان قـيم التـاريخ والعنصر الفاعل فيه، فقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم عن خلق الإنسان خلقا خاصا مستقلا عن غيره من المخلوقات ولم يتولد عن أي منها ولم يمثل صورة أو مرحلة من صور ومراحل التطور المزعومة في تفسير نشأة الحياة والخلـق التكويني للإنسان والكون، وقد كان لإخبار القرآن عن ذلـك أسـاليب متنوعـة

(١) سورة سبأ: ١٠

(٢) سورة الجاثية: ١٢، ١٣.

ومختلفة، فتارة يتحدث عن أصل المادة التي خلق منها آدم (عليه السلام)، وتارة أخرى يتحدث – إلى جانب ذلك – عن وسائل الإدراك المعرفية، وتارة ثالثة يتحدث عن المآل والمصير، ورابعة يتحدث عن التقدير والتدبير والتصريف والتسيير والتسخير الكوني في معرض حديثه عن تقدير رزق الإنسان وما أعده الله تعالى له والنعيم الدنيوي بل والأخروي، والقرآن الكريم في كل ذلك يركز على علة الخلق ومقاصده والتي تتلخص في رسالة الإنسان في عبادة الله تعالى وإعمار الكون لتحقيق مفهوم الخلافة عن الله تعالى في كونه.

**ومن أدلة ذلك في القرآن الكريم ما يلي:**

١– قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ

فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

٢- وقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا

(١) سورة البقرة: ٣٠ – ٣٧.

وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1].

٣- ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[2].

٤- ومنها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ

(١) سورة الأعراف: ١٠ – ٢٥.

(٢) سورة الحجر: ٢٦ – ٤٠.

لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾[1].

٥- ومنها قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾[2].

هذه مساقات قضية خلق الإنسان في القرآن الكريم وبيان مقاصدها ودلالاتها. وفي إطار المقارنات الدلالية وتحليلها واستقراء صورها وعناصرها تتضح أهمية الاستقراء في فهم طبيعة الواقع الإنساني من حيث النشأة والمآل والمصير، وكبرى هذه القضايا قضية «الإدراك» إدراك الذات المخلوقة والذات العلية الخالقة والرسالة التعبدية للإنسان في الحياة وإدراك صور النعيم الدنيوي والأخروي.

إن هذا المنهج الاسترادادي في فهم الكون والعنصر الفاعل فيه، واستشراف الغايات الكبرى، والمآلات العظمى، يمثل استيعاباً قوياً لحركة التاريخ، وقبسا من عبق الإنسانية الراشدة التي تستلهم رشدها وتستمد قواها وعزائمها من

(١) سورة الحج: ٥.

(٢) سورة ص: ٧١ – ٧٨.

مقررات الوحي الإلهي الكريم ودلالاته القاهرة.

ويتبين من خلال هذا المنهج التاريخي عظمة الحديث وأهميته في تفعيل حركة التاريخ والترفع بها عن السرد الوقائعي الجاف، وتفكيك جمود الروايات التاريخية التي ترتبط بالإنسان والأرض أكثر مما ترتبط بالله تعالى وبالسماء، وتوازن بين عناصر المادة والطموح الروحي المجرد إلى السمو والنبل، وتحرر الحدث التاريخي حول الإنسان كمحور فاعل في الكون من مآزق التفسير المادي للتاريخ وفق مبادئ فلسفية تخلص للمادة تارة أو الروحية المجردة تارة أخرى.

وبات واضحاً أن من كبرى اليقينيات التاريخية فهم طبيعة الإنسان من خلال إنباء الوحي الإلهي الصادق، وأن دلالات الوحي في هذه القضية أصدق إنباءا من دلالات الفعل المجرد، وأن العقل المجرد يعجز – في غياب الوحي الإلهي – عن إدراك نشأة الإنسان وتفسيرها وتفهم مقاصدها ووظيفتها التعبدية والرسالية.

**ب– البنى التكوينية التزوجية:**

لا ريب أن مقررات العقل السليم تتفق مع مقررات الوحي الحكيم في إدراكه للإنسان ككيان ثنائي التكوين، أي أن الإنسان مكون من امتزاج ثنائي بين الجسد والروح.. يمثل الجسد من هذا الامتزاج العنصر المادي وتمثل الروح فيه العنصر الروحي «المعنوي»، كما أنه مكون من امتزاج ثنائي آخر بين العقل والقلب.. يمثل العقل فيه التفكير أو الإدراك النظري والعملي المجرد وفق قياسات عقلية تعتمد على وسائل إدراكية حسية، ويمثل القلب فيه الإدراك الإيماني الفطري المجرد والذي من مظاهره حصول خشية الله تعالى في القلب والخوف منه، ولا يمكن فصل أثر إدراك أحدهما على الآخر، فهما معاً يؤديان

إلى حصول اليقين الإيماني للإنسان في الكون.

ولما كان الأمر كذلك فلم يكن من الممكن والمعقول تصور الإنسان جسـدا بدون روح أو روحاً بدون جسد، كما لم يكن من الممكن تصوره قلبا بدون عقل ولا عقلا بدو قلب، ولكل من هذين الثنائين متطلباته، وهي وإن اختلفت وتباينت فإنها تمثل نوعاً في وجدة لا تناقضاً إنقسامياً يؤدي إلى فهم أحـد طرفـي هـذا الامتزاج الثنائي بمعزل عن الآخر، وتتطابق متطلبات الـروح والقلـب بينمـا تتباين مع متطلبات العقل والجسد في حين تتباين متطلبات الأخيـرين – العقـل والجسد – كل منها عن الأخرى.

وأيما كان فإن هذه المتطلبات تبين حاجة الإنسان إلى التفكير الذي يحصـل به اليقين العقلي والقلبي لإثارة العقل للتفكير وإثارة الوجدان بالامتثال، كما تبين حاجة الجسد المادية إلى الطعام والشراب وحاجة الروح إلـى إشـباع نهمهـا الروحي والوجداني ليتمكنا معاً من استغراق الإنسـان فـي نزوعـه التعبـدي وممارسة شعائره الإيمانية. ومحاولة فصل هذه البنى التكوينية للإنسان بعضـها عن بعض لا يعدو كونه محض عبث وعنت وإغراب في تصور صلة الإنسـان بالله تعالى.

ومن دلالات هذه البنى التكوينية وأهميتها لفهم طبيعة الإنسان في القـرآن الكريم ما يلي:

١– قول الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[1].

٢ – قول الله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ

(١) سورة الشورى: ٢٠.

نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[1].

٣- قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[2].

٤- قول الله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[3].

وهذه الآيات وتلك تعطي دلالات قيم التكوين الثنائي للإنسان والتوسط

---

(١) سورة القصص: ٧٧.

(٢) سورة الملك: ٢٣.

(٣) سورة الحج: ٢٧ - ٣٢.

والاعتدال في تلبية احتياجات كل مقابل من هذه الثنائيات لمقابله ليتحقق للإنسان رشده، فلا يجنح في تلبية احتياجات القلب إلى التقصير في تلبية احتياجات العقل ولا العكس، كما لا يجنح في تلبية احتياجات الروح إلى التقصير في تلبية متطلبات الجسد ولا العكس.

ولا ريب أن محاولات التجزئة أو التمحور حول أحد عناصر التركيب البنائي التكويني الثنائي للإنسان دون الآخر إخلال بمعدلات التوازن التكويني والبنائي للإنسان وتعطيل لشرع الله تعالى الحكيم، وإفساد لتصور علاقة المخلوق بالخالق، والعابد بالمعبود. وإخلال بضوابط النظم الدينية التي تبين معالم الهدى والضلال والرشد والغي، والاستقامة والانحراف، والاعتدال والغلو، والقصد والتفريط، وإن شئت فقل إفساد لمسيرة التدين الصحيح وممارسات التعبد الحقة لله تعالى رب العالمين. وهذا هو سبب إخفاقات النظم الوضعية في القديم والحديث في ضبط حياة الإنسان.. فقد اختزلت قيم الروح في قيم المادة واختزلت مصير الإنسان ومآله في الدنيا، كما اختزلت قيم الوحي الإلهي الحكيم في قيم العقل المجرد، فمنحت العقل سلطة مطلقة على النص، كما منحت الجسد سلطة مطلقة على الروح.

ولا تعجز القراءات التاريخية وتحليل الوقائع والأحداث والتجارب الإنسانية عبر العصور في الدراسات التاريخية عن إدراك خطورة هذه التجزئات للبنى التكوينية الثنائية للإنسان، كما لا تعجز عن إدراك خطورة ظاهرة التمحور حول هذه المكونات الثنائية له دون الاكتراث بمكوناته الأخرى لاسيما في العصر الحديث.. وليس من المستبعد أن تنفجر في العالم ثورات دينية عارمة ضد الحداثة ومعطياتها والتي تمخضت عن مناظير علمانية أو إلحادية فأغرقت الجسد في متع المادة، وغيبت الروح في حياة الإنسان، والدين عن الحياة،

وأمعنت في الإغراب بالإنسان ضد فطرته السليمة التي تدفعه دفعا إلى إرواء نهمه الديني ومتطلباته التعبدية وحقه في ضبط علاقته بالله تعالى.

وما انفجار ثورات الربيع العربي في دول إسلامية كتونس ومصر واليمن وليبيا وسورية عنا ببعيد.. إنها ثورات وجدت الاتجاهات الدينية فيها تربة خصبة للنمو ووجدت من الشعوب تعاطفاً دينياً قوياً يرغب في تطهير البلاد من الظلم والطغيان والقهر والفساد، ويطمح إلى التخلص من أطروحات العلمنة ومحاولات الإلحاديين تغييب الدين وتعطيل شرع الله الحكيم أو تغييبه عن إرواء متطلبات الإنسان وتطلعاته الدينية.

بيد أن نجاح هذه الثورات مرهون بتوازن أطروحاتها وبتجرد نياتها وباكتساب خبرات العمل الإداري والفقه السياسي من وقائع وأحداث السيرة النبوية الراشدة والفهم الدقيق لمعطيات القرآن الكريم والسنة الشريفة، وممارسات صحابة رسول الله محمد (ﷺ) وسير التابعين وتابعيهم، في إطار مراعات القضايا المصلحية الكبرى، ومنهجية التدرج التشريعي ومراعاة فقه الأولويات والمقاصد العامة والكلية للإسلام.

## ثانياً: فقه السنن الإنسانية والكونية.

يعتبر «فقه السنن الإنسانية والكونية» إحدى أهم خصائص منهج الدعوة الاسترادادي إلى الله تعالى، ذلك أنه يدفع الإنسان إلى قبس من الماضي البعيد أو القريب بهدف فقه وتدبر واقعه الآنيّ واستشراف مستقبله القريب والبعيد في إطار الاستنتاجات التاريخية واستبصار الماضي والحاضر والمستقبل في عبق فقه السنن الإلهية الشاخصة والكائنة بين جنبات النفس الإنسانية وطواياها وخفاياها، وتلك السنن المرئية الماثلة في ثنايا الزمان وشخوصات المكان، لتدفع الإنسان إلى مزيد من فقه العبر والعظات، وفقه حركة الإنسان والكون، وفقه

معاني ودلالات التدبر الإلهي للإنسان والكون، في إطـــار الخلـــق والتكـــوين، والتيسير والتسيير، والتبصير، فيعرف الله تعالى حق معرفتـــه ويتعبـــده حـــق عبادته، قدر اجتهاده في خلواته وجلواته.

ولا غرو إذا قلنا إن هذه الخصيصة تمثل للداعي والمدعو معا منظارا فائق القدرة لاستشراف القيم المعرفية الدعوية التاريخية، وفقه الثوابـــت والمتغيـــرات في الإنسان والكون، ومعرفة إمكانات تهذيبها، وشحذ الهمم للاستفادة منها فـــي إرواء غرائزهما الإنسانية ومواهبهما الإلهيـــة وتوجيـــه طاقاتهمـــا وقـــدراتهما لتمحيص مسيرة تعبدهما ومعرفة المسالك الراشدة لإنقاذ الإنسانية.

وسوف أركز في هذه الدراسة على معرفة السنن الإنسانية ثم أتبعها بســـنن الله تعالى الكونية.

## أولاً: سنن الله تعالى الإنسانية.

من هذه السنن ما يلي:

١- سنة الإيجاد والإعدام الإلهية.

٢- العناية الربانية.

٣- الاجتماع البشري.

أ- حب المنشأ.

ب- التنافس والغبطة.

ج- التمايز والتغايظ والصراع

د- التداول والتدافع التمكين.

وقبل أن نبدأ في بيان مفاهيم هذه السنن ودلالاتها أوضـــح مفهـــوم الســـنة والقيود المستنبطة من آي القرآن الكريم والسنة الشريفة لتحقق الوصف بالسنية. وانسجام ذلك مع دلالات العقول الصحيحة.

**مفهوم السنة:**

للسنة دلالات لغوية ومفاهيم اصطلاحية محددة، والأخيرة تمثل أمشاجاً في رحم الاشتقاق اللغوي يربط بينهما حبل دلالاي سري يصل مفاهيم الاصطلاح بالدلالات اللغوية الأمم، وتتوقف حياة هذه الأمشاج الاصطلاحية على حسن الفهم ودقة الفقه وحكمة التصورات والرؤى التأصيلية والتنظيرية، وكما لا يتصور جنين بلا حاضنة فكذلك لا يتصور مفهوم اصطلاحي بلا حاضنة، على أن أصل المادة الاشتقاقية يمثل بقوة هذه الحاضنة، ويدعم حسن الاستدلال صلاحيتها للوجود. وفيما يلي أوضح ذلك:

**أولاً: السنة في دلالات الاشتقاق اللغوي:**

ثمة دلالات اشتقاقية عدة للسنة في الاشتقاق اللغوي منها ما يتعلق بموضوع الدراسة ويعتبر أصلاً للبنى الاصطلاحية للمصطلح، ومنها ما يتعلق بدلالات مغايرة إذ أن دلالات الاشتقاق اللغوي أوسع من هذه البنى الاصطلاحية.

فقد وردت لفظة السنة في اللغة في مادة (س ن ن) من منظور توافقي تأطيري بين الاشتقاق والاصطلاح بمعنى: «سنة الله: أحكامه وأمره ونهيه، وسنها الله: بينها. وسن الله سنة أي بين طريقا قويما قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾. والسنة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. قال الزجاج: سنة الأولين أنهم عاينوا العذاب. وسننتها سناً واستننتها سرتها وسننت لكم سنة فاتبعوها، ويجوز أن يكون من سننت

الإبل إذا أحسنت رعيتها والقيام عليها»[1].

## ثانياً: في الاصطلاح:

من خلال ما سبق نستطيع أن نحدد صياغة مفهوم السنة اصطلاحياً فنقول: السنة: الأصل التكويني في الإنسان والكون بمقتضى إرادة الله تعالى وارتضائه بحيث لا يتخلف زماناً ولا مكاناً.

ومن ثم فلابد أن يتوفر للشيء ثلاثة أمور حتى يصدق وصفه بالسنية، وهي:

١- أن يريده الله تعالى.

٢- أن يرتضيه الله تعالى.

٣- ألا يتخلف وقوعه في إطار الزمان ولا في حيز المكان.

ومثال ذلك الأصل الفطري في التكوين ومفاده أن الإنسان والكون تجمعهما وحدة دلالية فطرية تعبدية تتمثل في التوحيد الإلهي بمقتضى التكوين الفطري التعبدي: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾[2]، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾[3]، وما شذ عن ذلك من اختلاف الناس في العقيدة لا يعد سنة إلهية وموهم من ظنه سنة لأن ذلك يصطدم بقول الله تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ ﴾[4]، وفرق بين اختلاف الناس في العقيدة واختلافهم في

---

(١) ابن منظور. لسان العرب جـ ١٣ ص ٢٢٥ دار صادر – بيروت – الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.

(٢) سورة الروم: ٣٠.

(٣) سورة الإسراء: ٤٤.

(٤) سورة الزمر: ٧.

الألسنة والألوان؛ لأن الأخير تتوفر فيه القيود الثلاثة للقول بسنيته بخلاف الأول، ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]، وليس من بينها العقيدة، بل ليس من المعقول – فضلاً عن أن يقبله المنصوص – أن يكون الاختلاف في العقيدة آية من آيات الله في الخلق؛ لأنه شذوذ عن الأصل الفطري بفعل الشيطان: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين جاءتهم فاجتالتهم عن دينهم»[2].

فالسنة لابد أن يريدها الله تعالى ويرتضيها لخلقه، ولا تتخلف عنهم زمانا ولا مكانا، والكفر وإن أراد الله تعالى وقوعه لأن شيئا لا يقع في الكون إلا بإرادته وإذنه فإن الله تعالى لا يرتضيه لعباده، ولم يثبت أن أحد ابني آدم كفر، وإن ثبت قتل أحدهما أخاه[3]، فلا يعد القتل كفراً، وإن عد من أكبر الكبائر، فسقط بذلك القول بسنية الاختلاف في العقيدة. وقد تظاهرت على ذلك دلالات النص والعقل والواقع.

ومن الآيات التي تؤكد القيود الثلاثة للوصف بسنية الشيء قول الله تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾[4] فقد أرادها الله تعالى وارتضاها ولم تتخلف عن أمة من الأمم، وهذه السنة الرسالية

---

(١) سورة الروم: ٢٢.

(٢) صحيح مسلم، تحقيق/محمد فؤاد عبد الباقي، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا جـ ٤/٢١٩٧ حديث رقم (٢٨٦٥) دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون تاريخ.

(٣) قال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠].

(٤) سورة الإسراء: ٧٧.

من سنن الله تعالى في الرسالات الإلهية إلى سائر الأمم.
وإليك بيان هذه السنن:

### سنتا الإيجاد والإعدام الإلهيتين:

من سنن الله تعالى الإنسانية والكونية «سنتا الإيجاد والإعـدام» الإلهيتـين للإنسان والكون، وهما أصل وجود المخلوقات وفنائها، وأصـل نشـأة الكـون والحياة وزوالهما، فلا شيء في الكون يوجد أو يفنى تعلقت به الإرادة الإلهيـة وجودا وفناءا، وهما من اختصاصات الذات العلية، إذ لا منـازع لـه سـبحانه وتعالى في واحدة منهما ولا شريك له تعالى في إرادة إحداثه، ولا ند لـه يمنـع تحقيق مراده، وهاتان السنتان تحققان «طلاقة القدرة الإلهية» في الفعل والإرادة إيجاداً وإعداماً، وإبقاءاً وإفناءاً، قال تعـالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1]، وقـال تعـالى: ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[2]، وقـال تعـالى: ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[3]، وقال تعالى في إيجاد النار كمصدر للوقـود والطاقـة للإنسـان ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾[4] وقال تعالى في طلاقة إرادتـه وتصـرفه فـي استحالة الطبائع بعد الإيجـاد ﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ

(١) سورة الأنبياء: ٢٢.
(٢) سورة الواقعة: ٥٩.
(٣) سورة الواقعة: ٦٤.
(٤) سورة الواقعة: ٧٢.

جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾[1].

إنها إذن دلالات قاطعة على قاهرية الله تعالى، ومطلق إرادته ومشيئته، فقد قهر الله تعالى العدم فأوجد المخلوقات، وقهر الله تعالى الوجود فأعدم المخلوقات، وأبدع تعالى خلقه فأحال طبائع الأشياء على غير مثال سابق ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[2]، وقهر الله تعالى البقاء فأفنى، وقهر الفناء فبعث بعض مخلوقاته بذات الخصائص ونفس الصفات، وأخذ على نفسه العهد بإفناء كل العوالم والمخلوقات تحقيقاً لمقتضى بقائه تعالى وديمومته، قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ

(١) سورة الواقعة: ٦٩، ٧٠.

(٢) سورة الأنبياء: ٦٩.

(٣) سورة القصص: ٨٨.

(٤) سورة البقرة: ٢٥٩.

﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾[1]

إن حركة التاريخ بعناصرها الثلاثة: الحدث والزمان والمكان، شهدت في الماضي مظاهر هذه القدرة الإلهية في الإيجاد والإعدام، ولا تزال تشهدها، وستظل تستوعب في المستقبل كثيرا من هذه المظاهر العلية، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾[2] حتى يقول الله تعالى يوم القيامة: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾ فلا يجيب عليه مما خلق إذ قد طواهم الفناء ولف الصمت الزمان والمكان، فيجيب الله تعالى على ذاته بمقتضى جبروته وقاهريته: ﴿ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[3].

إن مناط هاتين السنتين الإلهيتين في الإيجاد والإعدام أو الإفناء قائم على صفة «القدرة» لله تعالى، وللقدرة العلية مناط يحققها في عقولنا وأفئدتنا وتدركه حواسنا في ذواتنا في الكون من حولنا، وفي تصاريف حياتنا، ومظاهر غنانا وفقرنا، وضعفنا وقوتنا، وجهلنا وعلمنا، ويتمثل هذا المناط في إدراك حقيقة كنه الصفات الإلهية العالية المتعلقة بالتكوين والإفناء ولولا إدراكنا وفقهنا لها ما استطعنا فهم مراد حكمة الله تعالى في الخلق والتصريف والتيسير والتسيير.

ومن هذه الصفات العلية صفة «العلم» و«الحكمة» و«الإرادة» و«اللطف» و«الحلم» و«العزة» و«الجبروت» فتصور القدرة الإلهية بمعزل عن هذه

---

(١) سورة القيامة: ١ – ٤.

(٢) سورة فصلت: ٥٢

(٣) سورة غافر: ١٦.

الصفات العلية غير ممكن، وقد يوقع الإنسان في متاهات الاعتقاد الفاسد فيفسر الفعل الإلهي وفق قدرته المحدودة... المتناهية ضعفا.. المتضائلة حداً وكماً، ويخضع الفعل الإلهي الحكيم لقياساته البشرية فيفسد تصوره، وهذا ما لا يليق بكمالات الله تعالى اللامتناهية.

أضف إلى هذا أن تصور قدرة الله تعالى مجردة من مفاهيم الحكمة الإلهية والإرادة العلية لا يهدي العقل والفؤاد إلى فهم حقيقة القدرة الإلهية، لأنه لا يمكن تصور قدرة بلا إرادة، ولا إرادة بلا حكمة، كما لا يمكن تصور شيء من ذلك كله بدون علم، فضلاً عن تصور إحدى هذه الصفات الإلهية دون الأخرى.

والله تعالى قد يجري سنته في كونه لطفاً بخلقه وحلماً بهم، وقد يعطلها ويجريها على غير طبيعتها بمحض عزته تعالى وجبروته، هيمنة على كونه، وتذكيرا لخلقه، أو إنذاراً للضالين المكذبين المعاندين منهم، وتبشيراً للموحدين المؤمنين الصالحين من عبادة المتقين.. وقد يكون خرق الله تعالى سننه الإلهية التكوينية من باب الحلم واللطف بعباده ليهديهم إلى صحيح الفكر الذي يوصلهم إلى صحيح الاعتقاد. واستقامة الإيمان لتحصل لهم السكينة والطمأنينة وإيمان الإنسان بسنن الله تعالى وفقهها وفق هذين المسلكين في التفكير والتدبر يهديه إلى إدراك حكمة الله تعالى في الخلق والتكوين والتصريف، ويوضح هذا سائر معجزات الأنبياء، وما نسميه بالكوارث الطبيعية من الزلازل والبراكين والعواصف والأعاصير، فكل مظهر منها يحمل في طياته دلالات الإنذار والبشارة، وتذكير الناس بكبرياء الله تعالى وجبروته وعزته وبلطفه تعالى بعباده وحلمه تعالى بهم. ونستطيع في ضوء فهم هذا الطوفان في قصة نبي الله نوح (عليه السلام)، والنار التي ألقي فيها إبراهيم (عليه السلام)، وإهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين من الغرق في قصة موسى (عليه السلام)، وكذا نستطيع فهو سائر المعجزات

الإلهية والخوارق العلوية في إطار صـفات الجـلال والجمـال لله تعـالى رب العالمين.

من أجل ذلك يلفت الله تعالى العقول في سورة القيامة إلى فهم حقيقة القدرة الإلهية وتحرير مناطها وفقه الصفات اللازمة في إدراكها، إذ يقول الله تعـالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾[1]، إذ قـال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾ ولم يقل: «بلى عالمين»، ولا «بلى مريدين» لأن القـدرة تقتضي بالضرورة الإرادة والعلم وهما من متعلقات القدرة وليس العكس.

ولا يتحقق الفقه الكامل لدلالات هذه الآيات ومراد الله تعالى مما أودعه في مساقاتها من آيات بينات، وحجج قاطعة تبهر العقول ببيانـات معـالم التـدبير الإلهي الحكيم في تصريف كونه وتيسير سننه إقامة وخرقاً.. أجراءاً وتعطيلاً.. وبدون هذا الفقه لا يستقيم إدراكنا لدلالات القدرة الإلهية ومظاهرها في الكـون والعقل والنفس. فمن كان هذا شأنه لا ينازع في إيجاد ولا إعدام، ولا في إبقـاء أو إفناء، وهذا ما يحقق فهم دلالات قول الله تعالى: ﴿.... هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[2].

(١) سورة القيامة: ١ – ١٣.

(٢) سورة الروم: ٤٠.

## القياسات العقلية وفهم سنتي «الإيجاد» و«الإعدام».

ثمة صور من القياسات العقلية تعيننا على فهم سنتي «الإيجاد و«الإعدام» أو «الإبقاء» و«الإفناء» بعد الإيجاد. ومن هذه الصور ما يلي:

### أولاً: قياسات العقول الممكنة تصورا وتدبرا وتنقسم إلى قسمين:

أ- قياس المتماثلات.

ب- قياس المتقابلات.

وأعني بقياس المتماثلات: القياسات التي تشترك فيها علل القياس الواحدة بأن تستقر في العقول السليمة وجوه مماثلتها لبعضها في صور التماثل في الوجوه، والتسوية في التصور والتصديق أو في بناء المقدمات واستنتاج النتائج منها، ومن أمثلتها ما يلي: قياس القدرة على الإيجاد بالقدرة على الإعدام، والجامع بينهما التسوية في إرادة الفعل، وبالتالي فإن العاجز عن الإيجاد لا يمكن أن يتصور له قدرة على الإعدام، ولا يستساغ في العقول السليمة عكس ذلك القياس، لأن إجراءه غير واقعي – أو بالأحرى – غير موضوعي وبالتالي فلا يمكن أن يؤدي إلى نتائج موضوعية واقعية تقبلها العقول وتذعن لها الأنفس وتنقاد لها وتدين.

وأعني بقياس المتقابلات قياسات المتقابلات المعنوية، أي قياس النقيض بنقيضه لعلة جامعة بينها تستقر في العقول وتنصاع لها النفوس، وتسلم لها الحواس ومنها: قياس وجود الظلمة بوجود النور وقياس إمكانية «الانهيار الكوني» بـ «الاتزان الكوني» التي أقرت به العقول وشاهدت الحواس دلالاته، وقياس سلب خاصية الإحراق من النار على إلزام النار خاصية الإحراق.. ومن دلالاتها أن القادر على المنح والإكساب قادر على السلب والتعطيل، ووجه التماثل في كل من هذه المتقابلات هو التسوية في الفعل والاختلاف في الصفة،

فصفاتها متقابلة وإمكانية ورود الفعل فيها ممكنة ومدار التشريك في الحكم هنا هو الإمكان وليس الصفة، أي إمكان تغيير المكسبات وتغاير الأحوال وتوارد الإمكان بالإيجاب والسلب.

## ثانياً: القياسات العقلية الفاسدة.

وأعني بها قياسات الصفات والأفعال المتقابلة والتسوية بينها في العلة، كقياس الظلمة بالنور والحياة بالموت، وقياس الأحياء بالأموات وقياس الظل بالحرور، وقياس من يسمع بمن لم يسمع وهذا قياس فاسد ووجه فساده أن علة التشريك والتسوية مستحيلة عقلاً. ومثاله أيضاً قياس الاعوجاج بالاستقامة وأفعال الكفار بأفعال المؤمنين.

وهذا القياس يفسد الرسالات الإلهية ويؤدي بأصحابه إلى الانحراف عن شرعة الله تعالى عن طريق الخلط والتلبيس والظن والخرص واتباع الهوى. وقد أورد الله تعالى هذا القياس بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾[1].

وقد يرد في أذهان البعض اعتراضاً بأن هذا القياس كسابقه (قياس المتماثلات) ومع هذا وردت النتائج مختلفة من حيث إن السابق ممكن ومقبول عقلاً وهذا مستحيل تصوره.

ويُدرأ هذا الاعتراض بأن القياس في الصورة السابقة قياس في العلة المشتركة وهي علة الإمكان، أما القياس في هذه الصورة فهو قياس علة التسوية

(١) سورة فاطر: ١٩ – ٢٢.

بين الصفات المتناقضة وهذا مستحيل عقلاً، غير وارد في الشرع الحكيم، فالقياس السابق يؤدي إلى فهم إدارة الفعل الإلهي الحكيم من حيث طلاقة القدرة والتصرف في الإيجاد والعدم – وبوجه عام – طلاقة القدرة والتصرف في الإرادة وعدم الإرادة، أما القياس الثاني فيفسد هذا الفقه الدقيق لمرادات الله تعالى وحكمته في إيراد الأشياء والأعراض وجوداً وعدماً.

وهذا القياس الفاسد هو الذي وضع أهل الباطل إلى إفساد اعتقادهم في ادعائهم إلها غير الله تعالى لعدم وجود علة جامعة تمكن من إجراء هذا القياس، وهذا تقرير لأصل حق في الاعتقاد يتمثل في قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1]، وقد رد الله تعالى هذا القياس عليهم لعدم إمكانية وروده عقلاً فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾[2]، فأي قياس يريدون!! وأي حكم يزعمون!! وأي اعتقاد يعتقدون!! وهيهات أن يوصلهم هذا القياس الفاسد إلى إثبات ما يريدون أو يعتنقون.

ولعلنا نستطيع في ضوء ما سبق أن نستلهم معنى لمرادات الله تعالى تعالج به قضية الجبر والاختيار الذي احتار فيها كثير من الذين أطلقوا لأنفسهم عنان الفكر فيها بمزيد من التكلف في الرؤى والتصورات فابتعدوا عن مرادات الله تعالى وحِكَمِه، وأغربوا في ذلك الخيال.

ونستطيع أن نقول لتوجيه بقاء السنن وخرقها في حياة الأمم والشعوب وفي تاريخ دعوات الأنبياء والمصلحين من حيث دلالات التصريف الإلهي والتيسير

(١) سورة الشورى: ١١.
(٢) سورة النحل: ١٧.

والتسيير لعباده أن الإنسان مسير في الألطاف مخير في الأفعال والأوصـــاف.. أي أن الإنسان مسير في لطف الله تعالى به إذ لا إرادة له في ذلـــك إطلاقـــاً.. ومخير في أفعاله وما يترتب عليها من صفات مكتسبة من حيث الخير والشـــر، أو الصلاح والفساد، فذلك بمحض فعله واختياره وإرادتـــه، ولا تعلـــق إرادة الله تعالى به إرادة إنفاذ لما يريده العبد لتحقيق مبدأ المسئولية والجزاء وما يترتـــب عليه من ثواب وعقاب، فاعقلوا يا أولي الألباب.

لا غروا أن من حس الفطن، وحكمة التعقـــل، وفطانـــة التـــدبير أن تفهـــم دورات التاريخ الإنساني في قيام الحضارات وانهيارها، وبقاء الأمم وفنائها فـــي إطار هاتين السنتين الإلهيتين «الإيجاد» و«الإعـــدام» أو «الإفنـــاء»، ذلـــك أن الوجود الحقيقي للأمم والشعوب وبالمطلق الإنسان، في أي عصر ومصر وكـــذا الحياة الحقيقية لا يمكن تصورها إلا في إطار التدين الصحيح والاعتقاد القـــويم وتطبيق شرع الله تعالى في القلوب والنفوس قبل تطبيقه في واقع الحياة، هذا هو المقياس الحق للبقاء والفناء.. للحياة الحقيقية والحياة الزائفة.. للقـــيم الإنســـانية الهادفة والقيم الإنسانية الهادمة.. للمنظومات السياسية التي تسوس الناس وفـــق معطيات الحق ومقررات الوحي ومواهب العلـــي الوهـــاب ســـبحانه وتعـــالى والمنظومات التي تسوسهم وفق مقررات العقل وهواجس النفس في معزل عـــن وحي الله تعالى ومواهبه؛ هذا ما نستلهمه من قصص الأمم السابقة مع أنبيـــائهم في القرآن الكريم، وفيها عِبَر للمعتبرين؛ وعظات للمتعظين، وهداية للمهتـــدين، فبقاء حياة هذه الأمم كان مرهوناً بتطبيق وحي الله تعالى عقيدة وشريعة وقيمـــاً وأخلاقاً، وأصولاً ومبادئ، وزوال حياتهم وفنائهم ما كـــان إلا بســـبب كفـــرهم بآيات ربهم وتكذيبهم رسلهم ومعاندتهم لهم وإسامة المؤمنين بهم سوء العـــذاب، واستبدالهم شرع الله تعالى بأهوائهم وأمانيهم الكاذبة.

## سنة العناية الربانية:

١- عناية الله تعالى بخلقه لم تتوقف على مراحل البنى التكوينية، وإنما تستمر لتشمله بعد إتمام خلقه بالرعية والحفظ وتدبير شئونه وتصريف أحواله، أي من يوم أن قدر الله تعالى له الحياة إلى يوم وفاته، وقبره في مثواه الأخير وإثابته ومعاقبته بعد الحساب، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

**الأدلـــــة:**

أ- قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[١].

ب- قولـــه تعـــالى: ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلًا ﴾[٢].

ج- قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾[٣].

د - قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾[٤].

٢- والعناية الإلهية بالمخلوقات من مقتضى رحمة الله تعالى بخلقه ولطفه بهم، فهو تعالى إذ خلقهم لم يجعلهم بنى مادية فقط، بل زود هذه البنى بالروح التي تتوق إلى آفاق التعبد الحق ورضوان الله تعالى، كما زودهم بالعقل الذي يستشرف آيات الجمال والجلال الإلهية في الأنفس والآفاق فجعلها بنى مدركة

---

(١) سورة طه: ٥٠.

(٢) سورة الإسراء: ٧٠.

(٣) سورة الرحمن: ١ - ٤.

(٤) سورة البلد: ١٠.

فاعلة في عمارة الأرض بعبادة الله تعالى والعمل الصالح ووهبها مـن الـوحي الكريم ما يصون حياتها ويحفظ حقها ويرشد سلوكها، ويقوم أخلاقهـا ويهـديها تقواها وفجورها.. فيبين لها الرشد من الغي، والهدى من الضلال، الإيمان مـن الكفر، والاستقامة من الانحراف، هذا على مستوى القيم الجمالية الروحية.

**الأدلـــــة:**

أ – قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾(١)

ب – قوله تعالى ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ ﴾(٢)

ج – قوله تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴾(٣)

د – قوله تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾(٤)

٣ – أما على مستوى القيم المادية فقد حفظ الله تعالى بعنايتـه المخلوقـات من فساد بناها التكوينية فيما قدر من حياتها، إلا ما كان فتنة واختبارا، وأمـدها بوسائل الإدراك الحسية، وقدر لها أرزاقها، ويسر لها سبل عيشها، وسخر لهـا الكون بآياته العظام وأجرامه الجسام، وصرف لها مقومات الحياة، فمهد الأرض وسخر الشمس والقمر، وسخر الريح، وأنزل المطـر، وأنبـت الـزرع، وأودع الأرض والشمس مصادر الطاقة فجعل الظلمة والنور، والليل والنهار.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٣) سورة الجن: ١٦.

(٤) سورة الشمس: ٧، ٨.

الأدلـــــة:

أ- قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾(١)

ب- قوله تعـــالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾(٢)

ج- قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾(٣)

د- قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤)

٤- وقد شرع الله لها من التشريعات الحكيمة ما تحافظ به على هذه البنـــى التكوينية المادية في الأجساد، والأنفس، ليس هذا فحسب وإنما امتد ليشمل كـــل المقدرات طولا وعرضا، وظاهراً وباطناً، وقرباً وبعـــداً، وصـــيرورة ومـــآلاً، ليشمل الظروف المحيطة بالإنسان، فشرع الحلال والحرام، فأحل كـــل طيـــب وحرم كل خبيث، إزكاءً للنفس وحفظا للجسد وحفاظا علـــى ظـــروف الحيـــاة المحيطة (البيئة) وتجنيبا لها مما يفسد بناها التكوينية ومقدراتها الحياتية، فحـــرم الخمر وما يذهب العقل وما في حكمها وعلة مماثلتها، وحرم قتل الـــنفس التـــي حرم الله إلا بالحق قصاصا، فحرم الدم والصراع المفضي إليه، وحرم الزنا لأن

(١) سورة النحل: ١٢.
(٢) سورة لقمان: ٢٠.
(٣) سورة فاطر: ١٣.
(٤) سورة الجاثية: ١٣.

ارتكابه يدفع إلى الانتقام من الزاني ثأراً للكرامة والشرف، وحرم القـذف لمـا يفضي إليه من الظلم والجور والدنس ولأنه يدفع أيضـاً إلـى أهـلاك الجسـد وإزهاق الروح انتقاماً للعرض من القاذف، وحرم الربا لما له من آثار بغيضـة ترسخ للتنافس البغيض على المال واسـتغلال الفقـراء، والتصـرف المـذموم بمقدراتهم المالية، والإجحاف بحقوقهم الماليـة المشـروعة، وفـرص العـيش الشريف والكسب المحترم شرعا، وكل ذلك يوسع الهوة بين القـادرين وغيـر القادرين وبين الأغنياء والفقراء.. إنها هوة تسَّر فيها ليس فقط المقدرات الماليـة وإنما أيضا النفوس والأجساد، ولك أن تتخيـل موقفـاً واحـداً مـن الفقـراء والمعوزين والمستغلين ضد الأغنياء والقادرين، وما يترتب علـى ذلـك مـن ثورات نفسية واجتماعية تحيل المجتمع إلى بؤر فاسدة ليس فقـط بـؤر الحقـد والحسد من الفقراء على الأغنياء وإنما بؤر لإفساد الأجسـاد وإزهـاق الأرواح انتقاماً للحق المسلوب والمقدرات المهدرة، وتسخير المال في يد قوى اجتماعيـة لا تملك في سياستها المالية إلا مزيداً من البطش والإجحاف والإضـرار، بـل وإذلال الآخر غير القادر والمعوز والفقير.

فما أقبح الاستغلال والجشع الذي يحيل المجتمعات الإنسانية إلـى صـراع طبقي يرسخ لمبادئ اللاحياة واللاحق إلا لمن أراد وملك وقدر.. فكـم سـقطت مجتمعات وانهارت حضارات بسبب الرأسمالية الظالمة والشـيوعية المجحفـة اللتان كرستا للمادية والعلمانية والإلحاد، وجعلت العالم يدور في اتون صراعات مادية وجدلية أتخمت الجسد وأعاقت الفكر الراشـد واغتالـت الـروح تغـذيها نظريات وآراء وتصورات سياسية تجردت من تعاليم الوحي الإلهي وخلوت إلى السيطرة والنفوذ واستغلال ثروات العالم الفقير والضعيف، وكان لهذا تأثير بالغ وأثر سيء في ذيوع نزعة الانتحار في الغرب تارة والقتل تارة ثانية، والغصب والاغتصاب تارة ثالثة، فأفسدت بذلك بنى تكوينية ليس للأجساد فحسـب وإنمـا

للمجتمعات مدفوعة بسياسات التطهير العرقي، وإثارة الشعوب للنزوع إلى ثورات وانقسامات فكرية واجتماعية وعرقية وطائفية، بل ودينية ليس إلا لاستلاب الثروات ونهبها.

وثمة أمثلة ونماذج تشريعية كثيرة تؤصل للعناية الإلهية والرعاية الربانية للإنسان والكون وفق معطيات ومقررات وأصول ودلالات الدين الوسطي الحق، بيد أن المقام لا يسع لبسطها، وليس هذا موضوع بحثنا، ونحيل إلى تفاصيلها من مظانها ومصادرها الشرعية، فليرجع إليها.

٥- عناية الله تعالى بما يجول في خواطر النفس البشرية:

إن المتأمل في دلالات التشريع الحكيم من خلال نصوصه الكلية والتفصيلية الجزئية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يدرك تمام الإدراك أن عناية الله تعالى ورعايته لمخلوقاته لم تتوقف عند حدود الحفاظ على البنى التكوينية للأجساد وصيانتها، وإنما تعدت هذه الحدود إلى حدود أجل وأعظم وأدق وألطف وهي أحاديث الخواطر النفسية ومدارج الانفعالات الوجدانية وما يستكنه الإنسان في صدره أو توسوس له به نفسه أو تنزع إليه نزوعاته أثرة وأنانية أو جنوحاً إلى التفريط في الالتزام بالأحكام الشرعية والاستقامة التعبدية والسلوكية.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[1]، وفي تذييلات العديد من الآيات الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[2]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ

(١) سورة ق: ١٦.

(٢) سورة الحج: ٦٣.

(٣) سورة المائدة: ٨.

ٱلصُّدُورِ ﴾[1]، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾[2]، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾[3]، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ..... ﴾[4] وغير ذلك من الأدلة كثير في القرآن الكريم وكذا السنة الشريفة.

ومما يندرج تحت هذه السنة الإلهية العظيمة الكليات الخمس وهي: حفظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال.

## حب المنشأ:

حب المنشأ سنة من سنن الله تعالى الإنسانية في تاريخ الإنسان منذ نشأته في الكون وحتى نهاية وجوده فيه، وهي سنة فاعلة في تاريخ العمران البشري وأساس من أسس الاجتماع.. وهي سنة فطرية يعبر عنها بـ (حب المنشأة) أو (الانتماء) أو (التجذر) أو (حب البلد) وأطلق حديثاً (حب الوطن) و(المواطنة) بما يتضمنه من حقوق وواجبات من خلال التفاعل المشترك والعيش المشترك بين أبناء الوطن الواحد.

ومما يؤصل لهذه السنة الإلهية في الخلق المركوزة في الفطرة الإنسانية موقف الرسول (ﷺ) في هجرته الشريفة من مكة إلى المدينة المنورة، وقد احتوت عيناه الشريفتان معالم مكة، وخالج دروبها وأزقتها وجبالها وسهولها وجدانه، وتعلقت بذكرياته فيها خواطره، ولم لا وهي مسقط رأسه الشريفة

(١) سورة آل عمران: ١١٩.
(٢) سورة غافر: ١٩.
(٣) سورة البقرة: ٢٣٥.
(٤) سورة المجادلة: ٧.

ومدرج تعبده الله تعالى في خلواته التأملية في غار حراء، ذلك المكان الذي يمثل شرفة من الشرفات التي يبصر منها الناظر معالم مكة كلها، وكيف لا وهي موطن رسالته ومدرج دعوته، وفيها أهله وقرابته...

ما أصعبها من لحظات وما أقساه من قرار وما أوجسه من مآل!! تلك اللحظات التي يقرر الإنسان فيها فراق بلده، وبها أهله وأحبته ورفاقه، وفوق ذلك بيت الله الحرام الذي يأنس به ويتوق إليه.. ما أوجسه من مآل مجهول العواقب.. محفوف بالمخاطر تلفه الظنون، وتستغرقه الشكوك، وتحيطه هواجس الوحشة لولا أن الله تعالى قد صدقه الوعد، فآنسه في مهاجره، وعوضه عن ذلك بأهل من خيرة خلقه وصحب من خيرة صحبه، ومع أن الله تعالى قد استبدل وحشته في هذا المكان الغريب عليه بأنسه، واستبدل آلامه بالآمال، وأمنياته بالحقائق فمكن له دينه وأسس فيه معالم دولته الجديدة – مع ذلك فإنه (ﷺ) كان يراقب اللحظات التي يأمل أن يعود بها إلى مكة.. دار المنشأ والقرابة والأهل آملاً في تغيير معالمها وثقافاتها وأحوالها وطقوسها وعقائد أهلها وعباداتهم وفق مرادات الله تعالى كي تطهر من دنس الشرك وانحرافات المسالك التعبدية بها أن قدمها (ﷺ) في حجة الوداع ثم دخلها فاتحت.

ولك أن تقارن بين موقفه (ﷺ) في الهجرة وموقفه (ﷺ) منها في الفتح.. فرغم أنه هاجر منها مضطراً إلا أنه عاد إليه محباً، ورغم أنه عانى فيها وطأة الظلم إلا أنه دخلها عفواً كريماً سمحاً سهلاً، وبرغم آلام الفراق في مهاجره إلا أنه (ﷺ) دخلها فرحاً مسروراً محباً، وغم المحاولات التي حاكها أهل مكة لاغتياله (ﷺ) والقضاء على رسالته إلا أنه كان حريصاً على عدم إراقة الدم وقتال المسالمين والضعفاء من الرجال والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون

حيلة ولا يهتدون سبيلا.

يؤكد هذه السنة الإلهية في الخلق قول الرسول (ﷺ) وهو خارج من مكـــة مهاجراً وقوله (ﷺ) وهو داخل فيها فاتحاً.

أما قوله وهو خارج من مكة: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلْدَةٍ وَأَحَبَّكِ إِلَـــيَّ، وَلَوْلَـــا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ»(١).

وقوله (ﷺ) وهو داخل مكة وقد جمع أهلها: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُـــمْ ؟» قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ قَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»(٢).

فذاك قوله وهو مهاجر من مكة يعتصره الألم لفراقهـــا بمـــا فعلـــه أهلهـــا به (ﷺ)، وهذا قوله وهو داخل إياها منتصراً في تواضع الأنبياء لا فـــي زهـــو الملوك، وسماحة الفاتح لا انتقام القادة على نحو ما هـــو معهـــود مـــن هـــؤلاء وأولئك في أحداث التاريخ ومشاهده.

إن فهم هذه السنة الإلهية في الخلق هام لدراسة التاريخ وحركـــة التـــأريخ لفصوله وأحداثه ومشاهده ووقائعه، كما أن فهم هذه السنة الإلهية ضروري فـــي تفسير حركة التاريخ ودراسة تاريخ العمران البشري، كما أنه ضروري لترسيخ مبادئ المواطنة من حيث حب الوطن والدفاع عن حياضه والتضحية في سبيله ومقاومة الغازي والمستعمر وعمارته بالعمل الصالح والنهوض به وفق قـــوانين الهداية الإلهية وشريعة الإسلام السمحة التي تتمحض للبناء لا للهدم، وللإصلاح

---

(١) أخرجه الإمام ابن حبان في صحيحه: باب فضل مكة أبواب ذكر البيان بأن مكة كانت أحب الأرض إلى رسول الله (ﷺ) ٣٣/٩.

(٢) أخرجه الإمام البيهقي في «معرفة السنن والآثار» باب المسلم يدخل دار الحرب فيشتري داراً أو غيرها ٢٩٣/١٣.

لا للإفساد، ورعايته الأمة ومصالح أفرادها، والموازنة بين مصالح الوطن ومصالح الأمة، وبين مصالح الوطن ومصالح الفرد.

إن فهم هذه السنة الإلهية في الخلق يمكن الدعاة إلى الله تعالى من أداء رسالتهم ونشر دين الله تعالى في أرضه وهداية الناس إلى الله رب العالمين إزكاءً لمبادئ الدين الإسلامي الحنيف وترسيخا لقيمه وشريعته.

وإذا كان الأمر كذلك من الأهمية فإننا ندرك خطورة غياب فهم هذه السنة الإلهية في دراسة تاريخ الأمم وسير الأنبياء والقادة الفاتحين والدعاة المصلحين، كما يتضح خطورة تغيبنها عن ذاكرة التاريخ ووعي الأمة وإدراكها لفصول التاريخ ومشاهده ومقاصد دراسته لاستلهام العبر والدروس وقياس مصالح الأمة الآنية والمستقبلية عليها.

## الاجتماع البشري:

أثبتت الدراسات الاجتماعية والتاريخية[1] أن «الإنسان مدني بطبعه» يألف ويؤلف، يتطلع إلى الاجتماع ويرفض الوحدة، والانزواء والتقوقع في بؤر التفرد والانقسام التي لا تؤدي إلا إلى مزيد من الفرقة والشتات والاستقطاب الحاد نحو عوامل الفرقة والتجزئة.

ورغم أن هذه السنة الإلهية ضرورية لفهم تاريخ الأمم وسيرها، وعوامل نهضتها وتقدمها ورقيها ومحاربة سبل الشقاق وما يتهدد وحدة المجتمعات

(١) يراجع في هذا المراجع والمصادر الخاصة بدراسة التاريخ والعمران والدراسات النفسية والاجتماعية التي نعني بدراستها سلوك الأفراد والجماعات والمجتمعات والممالك والدول، وما يستتبعهامن دراسة صفات الأنبياء، والملوك، والقادة، وحركات الانقسام الناشئة عن المذهبية والحزبية والأيديولوجيات التي تؤصل للصراع وتشعل جذوته ليأكل الأفراد والمجتمعات والدول.

الإنسانية ومصيرها ومآلها، إلا أن حمكة الله تعالى قـد اقتضـت فـي تـاريخ العمران البشري وتاريخ الأمم والممالك والشعوب والمجتمعات ما يلي:

أ- التنافس والغبطة.

ب- التمايز والتغايظ والصراع.

ج- التداول والتمكين.

## أولاً : التنافس والغبطة.

اقتضت حكمة الله تعالى في الخلق مراعاة مبدأ «التنافس والغبطـة» بـين الناس وهو مبدأ هام لإزكاء القيم والمبادئ، وفعل الخيرات وتـرك المنكـرات، وبناء الأمم والدول، والحفاظ على مصالحها وإزكاء نهضتها ومحاربة عوامـل سقوطها وانكسار مسارات تاريخها.

إنها حكمة ترسخ لقيم التعارف والتوافق لإصلاح الأفـراد والمجتمعـات، والتعايش السمي بين الأفـراد والـدول والشـعوب.. فـي إطـار الموازنـات والترجيحات بين مصالح كل من هذه الأطراف بحيث لا يتعـدى فـرد علـى مصلحة فرد، ولا دولة على مصالح دولة، ولا شعب على مصالح شـعب.. إن هذا التنافس وهذه الغبطة في إطار هذه التوازنيـة الربانيـة يحققـان اسـتقرار المجتمعات البشرية وتحقيق مبادئ السلامة والعيش المشترك والعمل الفاعل في البناء والنهضة بما يحقق الصالح العام، وتذويب فوارق الطبقية والقضاء علـى عوامل الانقسام التي تزكي الصراع من أجـل المصـالح الخاصـة والعامـة والصغرى والكبرى، وتهدد استقرار المجتمعات والشعوب.

إن مبدأ «التنافس والغبطة» يجب فهمه في إطار حركة الإصلاح العام لهذه المجتمعات والشعوب بما يحقق مصالحها الدنيوية ويصلح مآلاتها الأخروية فـي إطار التعبد الصادق لله رب العالمين.

ومما يؤكد هذا قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾(١).

إن هذا التنافس المحمود وكذا الغبطة التي تدفع الإنسان إلى تحقيق مثل صلاح المصلحين لنفسه وهداية المهتدين ورشد الراشدين وعرفان العارفين هما اللذان يحققان النموذج الأمثل الأنفع والأبقى.. الأطهر والأنقى، ذلك النموذج الذي يتسم بالحياة والخلود والعزة والمجد لهو الأصلح لأن تصاغ حياة البشرية في ضوئه ونبني المجتمعات وتصاغ الشعوب على أسسه وفي رحابه.

وهذا التنافس هو الذي وضع دولا في صدارة الدول وشعوباً في صدارة الشعوب.. هو الذي حقق للأمة الإسلامية بقاءها ومحصي خصائصها وسماتها ورفع ذكرها ومجدها بين الأمم والشعوب ووقائع التاريخ وأحداثه شاهدة على تنافس صحابة رسول الله في فعل الخيرات وتعطير الحياة بأريج العمل الصالح فأقام الله تعالى لهم دولتهم في فترة وجيزة من فترات التاريخ في ثلاث وعشرين عاماً على نحو معجز في التاريخ الديني والسياسي وميادين العمران البشري، وما تزال البشرية بخير طالما حذت حذو هذه الأمة المباركة، ومازال المسلمون بخير ما حذوا حذو سلف الأمة الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم (رضي الله عنهم) ومن حذا حذوهم وتتبع في تحقيق العمران خطواتهم ونهج منهجهم، ويؤسس

(١) سورة المطففين: ١٨ – ٢٨.

القرآن الكريم لهذا المبدأ العظيم بقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾[1]، وبقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ ﴾[2]، وبقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[3].

وقد جاءت الآيات الكريمة بمقتضى حكمة الله تعالى وفق ما أجراه الله تعالى من هذه السنة الإلهية في خلق الإنسان لتجعل منه نموذجا فريداً متميزاً في بناء نفسه، وصياغة تاريخه، وتحقيق ذاته، وصناعة مجده.

إن دراسة الدعاة لهذه السنة وفهمهم إياها ومراعاتهم طبيعتها ومآلاتها ومقاصدها وغاياتها هام لإثراء العمل الدعوي من حيث اختيار الأسلوب الأمثل في الدعوة إلى الله تعالى لاستخراج كوامن طاقات الإنسان لحضه على العمل الصالح والتنافس فيه بقصد تحقيق صالح الإنسان وصالح الإنسانية.

## ثانياً : التمايز والتغايظ والصراع:

إن دراسة منهج الدعوة الاسترادادي يفتقر إلى فهم التمايز والتغايظ والتدافع باعتبار ذلك سنة من سنن الاجتماع البشري، وفهم خصائص وطبائع وسلوكيات

(١) سورة المؤمنون: ٥٧ – ٦١.

(٢) سورة البقرة: ١٤٨.

(٣) سورة المائدة: ٤٨.

الأمم والشعوب والأفراد والجماعات المؤثرة في صياغة تاريخ الأمم والشعوب وهي ضرورية لتفسير الظواهر التاريخية والنزوعات البشرية، وهامة للوقوف على مدى أهمية العمق التاريخي لهذه الظواهر باعتباره مساقا عاما ينتظمها بكل مفاهيمها الجوهرية وخصائصها التاريخية، كما أنها تمثل ضابطا لحركة التأليف أو التأريخ.

وبالأحرى إن فهم حركة التاريخ يتوقف كليا على فهم هذه السنن الإلهية في الخلق، فهي الوقود المحرك لـ «ديناميكية» التاريخ، أي لحركة التاريخ، ومؤثرة بالدرجة الأولى في تكوين تلك الظواهر التاريخية فضلا عن تفسيرها.. بل إنني أعتبر أن صياغة التاريخ بدون فهم هذه السنن الإلهية عبث محض، ولا يمكن أن يؤدي إلى فهم صحيح لتاريخ دعوات الأنبياء بصفة خاصة والتاريخ العام بصفة عامة، وبالتالي فإن الدراسات التاريخية بعيدة عن هذا الفهم دراسة جدباء لا تزيل عن العقل البشري جهالة الأحداث والمشاهد التاريخية، فالتاريخ نتاج لسلوك أمم ومجتمعات، وهذه السنن هي التي تضبط منازع الناس وتحكم سلوكهم.

وباختصار فالتاريخ محصلة لتلك السنن الإلهية التي تنظم تلك المجتمعات بما فيها الأفراد والجماعات.. والتأريخ ليس مجرد حركة أو علم راصد لتاريخ الأمم والشعوب.. إذ أنه ليس نحتا لواقع وإن كان وصفاً له وإنما يعتمد اعتماداً كليا على تحليل الظواهر التاريخية لفهم أحداثها ووقائعها واستيعاب العوامل المؤثرة في تكوينها إيجاباً وسلباً.

وعلى الدعاة أن يفطنوا لهذا، عليهم أن ينظروا إلى التاريخ لا على أنه مرآة تعكس الأحداث والمشاهد التي تكون الظاهرة التاريخية، وإنما لابد من إدراكها على نحو من الدقة والعمق.. لاسيما أن دراسة التاريخ لا تنحصر في

أنماط أفقية، وإلا اقتصرت على مجرد الوصف، وإنما هي دراسة تجمـع بـين الأنماط الأفقية والأنماط الرأسية، وبدون الأخيرة لا يمكن فهم تاريخ المجتمعات البشرية، وعندئذ نكون كمن يمسك بالفيل من ذيله، ولا نستطيع أن نصف جسمه وصفاً دقيقاً لأنه غاب عنا ولم نعرفه، وهذا يوقعنا في الجهالة بالمؤثرات الفاعلة في تكوين أحداث التاريخ ومشاهده.

وبناءً على هذا نقول إن صور الصراع في المجتمعـات البشـرية تتـدرج تصاعديا من الدرجة الأدنى إلى الدرجة الأعلى، أي أنها تبدأ بالتمايز، وأقصـد به الخلاف الحاد بين الأفراد أو الجماعات، ثم ينتقل الصراع إلى مرحلة التغايظ وهي مرحلة تبدو فيها المؤثرات النفسية بصـورة قويـة متمثلـة فـي الحقـد والكراهية وتمني محو الآخر واستئصاله من الوجـود، وهـي مرحلـة تسـبق «التدافع» وأعني به الصراع الفعلي المتمثل في الاشتباكات المباشرة في صوره المختلفة من الإيذاء والضرب والقتل.. فلو لم نفهم هذا التدرج الطبيعي لمراحل الصراع في المجتمعات البشرية لم نستطع تحليل الأحداث ولا معرفة صـورها التصاعدية، وبالتالي يغيب عنا فهم حقيقة الصراع ومراحله التاريخية في تاريخ الممالك والإمبراطوريات والدول، وحتى في المجتمعات البدائية وبناء على هـذا لا نستطيع فهم قضية الصراع بين «الملأ» – أي القوة المـؤثرة فـي صـياغة المجتمعات البشرية – وبين عامة الناس، ولا نستطيع أن نفهم قصـة صـراع الطبقات وسطو المملوك وصدام الإمبراطوريات والممالك الذي يُغيـر واجهـة التاريخ على هذه الأرض، ويدير أحداثه ومشاهده، وقد يغـزي هـذا الصـراع معتقداتٌ وأيديولوجياتٌ فكريةٌ وثقافاتٌ بدائية، وثمرة ذلك كله إزهاق حياة العديد بل المئات والألوف والملايين من البشـر، وهـذا يتوقـف علـى أدوات إدارة الصراع وتطورها على مدار التاريخ لاسيما في العصر الحديث الـذي تعـددت

وتنوعت فيه تلك الأدوات فصارت أكثر فتكا بالإنسان.

وأضحت آلات الصراع في العصر الحديث أكثر خطورة وأكثر دموية ووحشية تصل إلى حد الإبادة الجماعية لمجموعات بل وأعراق ودول تزكيها النعرات العرقية تارة والقومية تارة ثانية والإقليمية تارة ثالثة، وتارة ابعة صراعات القوى الكبرى فيما بينها، والتي تذوب في إطارها الكيانات الصغرى والدول الضعيفة، وتنمحي إرادة ما تبقى من البشر إثر ذلك الصراع في صياغة حياتهم وصناعة تاريخهم.

أنه صراع بدأ بالخلاف حول المصالح، ثم بالشحن النفسي والتغاير حقدا وحسدا وحنقا، وانتهى بالقتل والإبادة الجماعية.. إن مشاهد التاريخ في هذا الصراع مشاهد ملونة بالدم بصورة تعكس همجية الإنسان في عصر ترقى فيه إلى معارف وعلوم – لم يقف عليها السابقون – صخرها للإفساد في الأرض وتغيير وجه الحياة في فصول التاريخ وأحداثه!!! فهناك الحرب الكيميائية والبيولوجية والنووية والتي من شأنها إبادة سكان الكرة الأرضية عن بكرة أبيهم!!!.

لو لم نفهم هذه النزوعات ما استطعنا تفسير ظواهر العنف والإبادة، وغصب حقوق الدول ولا للثورات الملونة التي تستخدم فيها الكيانات الكبرى أصحاب المصالح مستغلة الخلافات الطائفية والعرقية والدينية والمذهبية في إزكاء الصراع وإرادته على الأرض حتى بين أتباع الدين الواحد!! ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾!!![1].

تلك الصراعات الكبرى التي استغل فيها ساسة الكيانات القويد الدين

(١) سورة عبس: ١٧.

والمعتقد والأيديولوجيات كوقود محرك للقوى الكامنة في نفوس دول وشـعوب وجماعات بشرية ضد إخوانهم من بني الإنسان.. إنه وقود إدارة القتال وسـفك الدم ونهب الثروات باسم الدين والمعتقد والفكر والمـوروث البيئـي والمكـون الثقافي.. وما أخطر من استغلال تلك المكونـات النفسـية والعقليـة والثقافيـة والتقاليد في إدارة مثل هذا النوع من الصراع الدموي.

وقد استغل الساسة في القديم والحديث هذه العوامل فـي إخضـاع البشـر لإراداتهم وسيطرتهم على منابع ثرواتهم ودعمهم في هذه النزوعـات اللادينيـة واللإنسانية الكهنة ورجال الدين.. والتاريخ الإسلامي مترع بالمشاهد والأحداث التي تبين حمالات الإخضاع والهيمنة والسيطرة باسم الدين حتى أقنعوا المتدينين بـ مبدأ «الحق الإلهي الممنوح» لرجال الدين في إدارة شئون أتباعهم من أبناء ملتهم، واستغل الساسة القياصرة هذا المبدأ الذي منحه رجـال الـدين لأنفسـهم وزعموا أن الله منحهم الحق المقدس بإدراة شئون شعوبهم حتى انتشـرت فـي بعض الإمبراطوريات الكبرى عقيدة تأليه البشر لاسيما الحكام، وانتشرت عقيدة العصمة لطبقة الكهانة الداعمة لنفوذ الملوك والقياصرة والتاريخ القديم والحديث شاهدا على هذه النزوعات الفاسدة.

ففي العصور القديمة انتشرت في الإمبراطورية الفرعونية عقائـد عبـادة البشر والأسلاف وتأليه الفراعنة، وانتشرت سطوة الكهان من المعابد الفرعونية التي كانوا يستغلونها لإخضاع الناس للحكام من دون الله تعالى، حتى أن القرآن الكريم أخبرنا بهذه النزوعات البشرية الضالة، فقال تعالى حاكياً عـن فرعـون قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، وقوله: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، وبين الله تعالى جـزاءه: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن

﴿يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾[1].

وفي عصر الدولة الرومانية في عهد قسطنطين حدث أكبر عبث بالديانة المسيحية بمباركة رجال الدين غيرت جوهر المسيحية الحقة النقية الصافية التي جاء بها المسيح عليه السلام وذلك لدعم نفوذ قسطنطين وتوطيد أركان حكمه.. وفي نجران كان يعبد الملك من دون الله تعالى حتى إنه كان يقتل من يكفر به إلهاً، وتلك قصة الأخدود [2] شاهدة على انحراف البشر وتأليه الذات وعبادة الملوك، حيث قام الملك الذي خلع على نفسه وصف الألوهية وقامت طبقة البلاط الملكي بدعمه عن طريق إقناع عامة الناس بذلك – قام هذا الملك بقتل من كفر به وآمن بالله رب العالمين، ونزل في ذلك قرآن يتلى ويتعبد الله تعالى إلى يوم الدين ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾[3].

وفي العصر الحديث أقنع قادة الحملات الصليبية الشعوب المسيحية بأنهم يقاتلون من أجل إعادة مجد المسيح وسلطان الكنيسة، لأنهم يعرفون ما للدين من

---

(١) سورة النازعات: ٢٥، ٢٦.

(٢) يراجع قصتهم في جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، ح ٢٤، ص ٣٣٨ وما بعدها، مؤسسة الرسالة، ط: أولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير جـ ٨ ص ٣٦٦ وما بعدها والتفسير الوسيط للقرآن الكريم، د/محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر – دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ط: أولى ١٩٩٧ – ١٩٩٨م.

(٣) سورة البروج: ١ – ٨.

تأثير قوي في النفوس، ورُفع شعار الصليب والمجد للكنيسة، وتوطيد حكم الرب في الأرض. وكم أزهقت أرواح زكية في هذه الحروب التي أسموها بالصليبية، وكم انتهبت ثروات واحتلت دول باسم الصليب ومجد المسيح أو مجد الرب، والرب تعالى والمسيح (عليه السلام) منه براء.. فقد جاء المسيح بالسلام لا بالدم.. جاء نبياً لا حاكماً ولا طاغية، جاء معمراً للأرض لا مخرباً فيها.. جاء ليبني الإنسان لا ليجتثه من الوجود.. جاء ليحافظ على حقه لا ليضيقه، ذلكم المسيح (عليه السلام) في القرآن الكريم. لا كما زعمه قادة الصليب على حملاتهم وإغاراتهم على العالم الإسلامي!!.

وفي العصر الحديث أيضاً استغل زعماء الصهيونية العالمية وقادة اليهود الدين لإعادة مجد بني إسرائيل وإقامة مملكة فشحذوا همم رجال الدين – لإقامة مشروعهم الصهيوني وحلمهم في إقامة دولة إسرائيل في أرض فلسطين.. رغم أن رجال الدين اليهود كانوا يعارضون قيام دولة يهودية خشية القضاء على اليهود في هذه الأرض لو جمعوا من أرض الشتات.

وباسم نبي الله سليمان (عليه السلام) والمجد المزعوم لبني إسرائيل.. أريقت دماء زكية على أرض فلسطين، وانتهكت أعراض، وقتل أطفال، وأبيدت أسر بكاملها وشردت أسر أخرى خارج بلادها في أشرس مواجهات في التاريخ الحديث.. فتلك القنابل المخصبة باليورانيوم والقنابل العنقودية ووسائل القتال الحديثة من صواريخ وطائرات مقابل الحجارة ونداءات التحرر الوطنية في فلسطين، وصدور الأطفال والشيوخ والنساء والشباب!! وسط تعاون دولي وتأييد للمشارع الصهيونية ورعاية لها وفي كل استكبار وعتو وعدم انصياع لقرارات الأمم المتحدة المتخاذلة ومجلس الأمن بشأن قيام دولة فلسطين!!.

ولو أن نبي الله سليمان (عليه السلام) حيا لقاتل اليهود بما فعلوه، ذلك أن المقصد

من رسالات الأنبياء صناعة الإنسان وفق تشريعات الوحي الإلهي الكريم، وما كانت رسالات الأنبياء تنتصر لظلم أو بغي أو عدوان، وما كانت لتؤيد إبادات جماعية بقصد بناء كيانات سياسية بحتة، فقد كان سليمان (عليه السلام) نبياً قبل أن يكون ملكاً، ولما آتاه الله تعالى الملك ما كان لمقاصد تخلص لتأسيس إمبراطوريات وممالك، وإنما ليعلي فيها كلمة الله تعالى وينشر فيها دينه ليحيى الناس في ظله آمنين مطمئنين.

كما استغلت الولايات المتحدة الدين في العصر الحديث فقامت بتأييد ودعم كيانات دينية في الأوساط الإسلامية نجحت في زرعها في أفغانستان لجر الاتحاد السوفيتي آنذاك لحرب استنزاف مباشرة على أراضي أفغانستان كانت سببا في انهيار الاتحاد السوفيتي، وقد أطلقت على هذه القوى حركة المجاهدين الأفغان، أو على الأقل روجت لها إعلامياً في وسائل الإعلام الأمريكي آنذاك، وبارك الغرب الموالي للولايات المتحدة الأمريكية هذه الحرب وسط تأييد إسلامي من بعض الدول والدعم السياسي لهذه المواجهات..

لقد كانت حرباً بالوكالة خاضتها قوى إسلامية – للأسف – لتأمين المصالح الأمريكية والغربية الكبرى والتي كان يتهددها بصورة قوية بقاء الاتحاد السوفيتي كقطب قوي مناوئ للسياسة الأمريكية والغربية في العالم. ولما آتت تلك الحرب مخاضها وانهار الاتحاد السوفيتي ألهبت الولايات المتحدة والغرب الصراع بين الجماعات الإسلامية المقاتلة آنذاك خشية أن تمثل هذه القوى نواة لدولة إسلامية قوية في آسيا تمتد إلى العمق الإسلامي في الشرق الأوسط لتهدد مصالح الغرب والولايات المتحدة فنشب الصراع بينهم وقاتل بعضهم بعضا.

وبعد حادث الحادي عشر من سبتمبر (٢٠٠١ م) بالولايات المتحدة الأمريكية تغيرت واجهة السياسة الأمريكية تجاه هذه الجماعات وأطلقت عليها

الجماعات الإرهابية، وخاضت حرباً مباشرة ضدها فـي أفغانسـتان والعـراق الداعم وفقا لزعمها لتلك الجماعات.. وقتلت إثرها ابن لادن زعيم تنظيم القاعدة الإرهابي.

وفي تقدير النقاد أن تلك الجماعات والاتجاهات أخطأت في خوضها تلـك الحروب بالوكالة عن الولايات المتحدة الأمريكية.. كما أخطـأت مـرة أخـرى عندما أعطت الفرصة للولايات المتحدة الأمريكيـة أن تسـتغلها فـي العمـق الإسلامي في الشرق الأوسط كوقود لثورات ملونة خططت لها الولايات المتحدة وقوى غربية أخرى والقوى الصهيونية العالمية لإعادة صياغة خريطة الشـرق الأوسط الجغرافية وجر المنطقة بكاملها إلى دوامات من العنف الدموي تسـتغل في تقسيم الدول وفرض سياسة الصهيونية الحاقدة على العالم الإسـلامي فـي مصر وسوريا واليمن وغيرها من الدول الإسلامية.. والتي أطلق عليها الإعلام الغربي وتبعه الإعلام العربي بثورات «الربيع العربي» وأطلق عليهـا بعـض النقاد «ثورات الربيع العبري»؛ لأنها لا تقدم إلا المصالح اليهودية فـي تقسـيم الكيانات الإسلامية الكبرى إلى دويلات يسهل السيطرة عليهـا لضـمان عـدم خوضها حروبا كبرى مع تلك الكيانات تهدد وجودها.

كما استغلت الولايات المتحدة الخلافات المذهبيـة والطائفيـة فـي العـالم الإسلامي في إدارتها للصراع بين السنة والشيعة من خـلال دعـم المشـروع الإيراني في نشر المذهب الشيعي ودعمها في تكوين جيوب ودول شيعية بجوار دول وكيانات سنية كبرى لاستغلالها في تهديد أمن تلك الدول واستخدامها ورقة ضغط سياسية لإملاء شروطها حفاظا على مصالحها وأرض الأحـداث وإدارة الصراع هي لبنان وسوريا واليمن – الحوثيـون – وأطـراف الصـراع هـي المعارضة السورية والنظام وحزب الله في سوريا ومن قبل ذلـك فـي لبنـان،

والحوثيون اليمنيون والقوى السنية في اليمن تدعمها المملكة العربية السعودية وقوات التحالف العربي، والاحتلال الإيراني لجزر الإمارات العربية المتحدة الثلاث، والوجود الشيعي الإيراني الثوري في دولة البحرين. كل هذه الأطراف في الصراع المفتعل والمسيس والمغرض تدبره الولايات المتحدة والصهيونية العالمية والقوى الغربية في عالمنا الإسلامي وفي العمق الأكثر حساسية وفاعلية. فضلاً عن جر الجيش المصري إلى حرب استنزاف في سيناء تخوضها جماعات مغرضة باسم الإسلام في محاولة للقضاء عليه لصالح القوى الصهيونية.

إن الواقع العالمي الراهن يتطلب من المسلمين الفطانة في إدراك محركات الصراع وعوامله وأغراضه، ويتطلب طبيعة القوى المعادية للإسلام والمسلمين، كما يفرض وبقوة دقة الفهم وعمق الفقه لمقاصد الشريعة الإسلامية التي تتلخص في حفظ الدين الإسلامي وحفظ النفس والدم والمال والعرض والنسل، والحفاظ على مقدراتنا الاقتصادية، وحفظ الأمن والاستقرار في ربوع بلادنا.. يجب على كل الأطراف المعنية بالصراع مقاومة خطط التقسيم الصهيوني للعالم الإسلامي والوقوف مع الحكومات والأنظمة في مكافحة ذلك ذلك لا ضدها.. ويجب عليها ألا تكون أداة تستغل ضد دولتها وشعوبها وحكامها.

**ألا فليفطن الفطنون.. وليتذكر أولوا الألباب**

وعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يفطنوا إلى هذه السنن الإلهية في الخلق ليحذروا الناس من الوقوع في مخاطرها والانسياق وراء القوى الداعمة لها، ولا ينسوا أن فقه السنن الإلهية في الخلق والكون ضابط لفقه منهج الدعوة الاسترادي واستخدام مفردات التاريخ المتمثلة في تفسير ظواهره وأحداثه

ومشاهده بما يخدم الأداء الدعوي ويثري قيم الدعوة ويرسخ في معتقدات الناس وقناعاتهم قيم التاريخ فـي فقـه واقـع الإنسـان وتاريخـه، وفهـم تـاريخ الإمبراطوريات والممالك والدول وتوظيفه لخدمة قضـايا الـدعوة واستشـراق مستقبل الأمة واستلهاما من الماضي القريب والبعيد.

## ثالثـاً: سنة التداول والتدافع والتمكين.

لا مرية أن لفهم سنة التداول والتدافع والتمكين في دراسات التاريخ وعلوم الاجتماع والعمران البشري أهمية بالغة لتفعيل الخطاب الديني في الممارسـات الدعوية في الأوساط الدعوية الإسلامية وميادين العمل الدعوي.

**ويعني بالتداول:** مداولة أسباب القوة ومغايرة الأحوال لدى الناس.

**ويعني بالتدافع:** دفع الله تعالى الناس بعضهم ببعض، أو بالأحرى تقيـيض الله تعالى للضعفاء من يدافع عنهم ويحقق استقرارهم، أو دفع الله تعالى الأقوياء بالأقوياء ليعيش الضعفاء في مأمن.

**ويعني بالتمكين:** تمكين الله تعالى للضـعفاء والمستضـعفين فـي الأرض الآخذين بأسباب النصرة والتمكين من إقامة دين الله تعـالى والاستمسـاك بـه والحفاظ عليه، أو بمعنى آخر تمكين الله تعالى فئة مؤمنة به صابرة على الإيذاء في سبيله من قبل قوى باغية ظالمة طاغية كافرة.

والتداول والدفع والتمكين مصطلحات ذات دلالات تصاعدية فـي تحقيـق مفهوم النصرة من الله تعالى للمستضعفين من عباده في الأرض.. فالمصـطلح الأول «التداول» يذكر الله تعالى به الظالمين من أن الأيام دول والأحوال كذلك، فضعفاء اليوم قد يكونوا أقوياء الغد، والمستضعفين اليوم قد يكونوا قـادة الغـد وبالقياس في أحوال المعيشة فقراء اليوم قد يكونوا أغنياء الغد، وأغنياء اليوم قد يكونوا فقراء الغد، ومن أمِن مكر الله في يومه عاقبه الله تعالى في غده وقضاء

الله يأتي في ساعة من ليل أو نهار. فالحديث عن التداول تذكير بقدرة الله تعالى على تصريف أحوال عباده وتدبير أمورهم.

وأما دلالة مصطلح «الدفع» فتمثل مرحلة انتقالية في كف الأذى عن المستضعفين وذلك بسليط القوى الباغية المستبدة على بعضها، أو تسليط قوة صالحة على أخرى غير صالحة ليعيش المستضعفين في كنفهم في أمان واستقرار على أن تحقيق هذا الأمن والاستقرار لم يكن ذاتياً من قبل المستضعفين، وإنما بتدبير الله تعالى لهم القوى التي تدافع عنهم.

أما دلالة مصطلح «التمكين» أن الله تعالى يمكن في الأرض لهؤلاء المستضعفين بأن يمكنهم من اكتساب وسائل القوة ويقدرهم على غيرهم حتى ولو كانوا كثرة باغية ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم وإقامة عقيدتهم وممارسة شعائرهم.

وفي هذا جاء قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[3]، وقد وردت هذه اللفظة «دَفْعُ» مرتين فقط في القرآن الكريم.

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٥١.

(٣) سورة الحج: ٤٠.

أما دلالات التمكين فقد وردت في مرات عديدة في القرآن الكـريم وكلهـا تبين ألا أحد يقدر على التمكين غير الله تعالى، لأن الله تعـالى هـو المهـيمن والمتصرف في كونه المدبر شئون خلقه، ومن هذه الآيات قول الله تعالى:

١- ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾(١).

٢- ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾(٢).

٣- ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾(٣).

٤- ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾(٤).

٥- ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة يوسف: ٥٦.

(٢) سورة الكهف: ٨٤.

(٣) سورة الأعراف: ١٠.

(٤) سورة الحج: ٤١.

(٥) سورة النور: ٢٥.

٦- ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[1].

**وهكذا يتضح من سياق الآيات الكريمة ما يلي:**

أ- أن القوى الغاشمة والإمبراطوريات المستبدة والحضارات التي لا تتأسس على أيديولوجيات فكرية بمعزل عن الوحي الإلهي زائلة لا محالة.

ب- أن الله تعالى هو الخافض والرافع.. المعز والمذل.. القابض والباسط.. وأنه تعالى هو القاهر فوق عباده، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾[2]، والقاهرية تقتضي مطلق التصريف بمقتضى الإرادة والمشيئة الإلهية، وأن الناس خاضعون لهذه القاهرية سائرون في فلكها لا ينفكون عنها.

ج- أن الله تعالى وحده يقتص للضعفاء والمضطهدين من الظالمين المتكبرين الجبارين في الأرض المفسدين فيها الذين يبدلون أمن الناس خوفاً، وسعادتهم شقاء، وعزهم ذلا، لاسيما لو كان هؤلاء المضطهدين مؤمنين موحدين، وأن الله تعالى القادر وحده على تبديل خوفهم أمناً وشقاءهم سعادة

(١) سورة القصص: ٤ – ٦.

(٢) سورة الأنعام: ١٨.

وذلهم عزاً، وأنه تعالى يمكن لهم في الأرض ويمـن علـيهم ويجعلهـم أئمـة مصلحين وقادة مهديين ويجعلهم الوارثين الأرض بصلاحهم.

د- إن تمكين الله تعالى للناس بمقتضى قادريته ليس أمراً مكتسباً، وإنما هو من مقتضيات قاهرية الله تعالى وقادريته، وفي دائرة مَنّـه وعطائـه وفضـله ومنحه، ولكنه مشروط بإقامة الدين والعمل الصـالح والاسـتقامة علـى ذلـك والصبر على المحن والابتلاءات... ذلك أن آيات التمكين أسندت فعل التمكـين إلى الله تعالى لا إلى غيره، وأنه مشروط بشروط معلق بتحقيقها. وأن التمكـين لا يحصل بالأماني والرغبات، ولا يطلب بالنفس والاجتهاد في تحصيله، وإنمـا سبيله الاستقامة على دين الله تعالى.

وفي قصص الأنبياء وغيرهم في القرآن الكريم عِبَرٌ وآيات معجزة وقاهرة في تاريخ الإنسان ومفادها أن تعالى يهلك الظالمين وينصر المظلومين ويمكـن لهم في الأرض بعد ضعف وإذلال، ومصـادرة إرادتهـم، وسـلب ثـرواتهم واستغلال الملأ – القوى الضالة التي لا تبحـث إلا عـن مصـالحها الخاصـة المتمثلة في الهيمنة والسلطة – ضعفهم وعجزهم عن الدفاع عن أنفسهم وتقرير مصيرهم.

وإذا كان التاريخ الإنساني في هذا القصص الكريم مليء بالمذابح والمجازر وسلب الإرادات وقهر الشعوب فإنه مليء أيضاً بمشاهد النصر والفرج الإلهـي بتحرير تلك الإرادات وتحقيق عزة المستضعفين في أرض الله.

وإذا كان التاريخ الإنساني في هذا القصص الكريم مليء بقيـادات ظالمـة وأئمة يدعون إلى النار فإنه مليء أيضاً بقيـادات تخشـى الله تعـالى وتخافـه وتتقيه.. وأئمة تهتدي بأمر الله.. وهذا ما يحقق سنة الله تعالى في كونه المتمثلة في «الدفع» و«التمكين» وفي ذلك عبر وآيات منها أنـه لا يبقـى فـي الأرض

حضارة فاسدة ولا أمة ظالمة.. «فهل من مُدَّكر»!!.

وإذا أردت اختصاراً قوياً لتلك الأحداث الكبرى في تاريخ الإنسان والدعوات الإلهية فاقرأ سورة القمر بتمامها.

إن الكون بقبضة الله تعالى ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[1] يصيره كيف يشاء ويصوغه وفق إرادته وتقديره وتدبيره، فلتحذر القوى الغاشمة في الأرض من غضب الله تعالى، ولتعلم أن الله تعالى يغار على صفاته أن ينازعه فيها متكبر أو متجبر أو متعاظم، ولتتعظ إذا أرادت لتاريخها رشدا ولممالكها فطانة وحكمة ولعبر التاريخ ذكرا.. فكم من جبار في الأرض قصمه الله تعالى، وكم من أمة ظالمة أبادها الله تعالى، وكم من ملأ أهلكه الله تعالى، وكم من مظلومين صاروا أئمة وقادة!!.

تلك هي السنن الإلهية في الكون ومعرفتها وفقهها ضروريان من أجل الاستفادة منها في فهم منهج الدعوة الإسلامية الاستقرائي لآيات الكون الظاهرة والباطنة ومشاهد التاريخ الإنساني وأحداثه ودلائل الدعوة الحقة وبياناتها وفهم قضاياها وتطبيقها.

## ثانياً: فقه السنن والظواهر الكونية:

لا مرية أن لفقه السنن الكونية أهمية كبرى لفهم مفردات وتقريرات منهج الدعوة الاسترادادي (التاريخي)، ومعرفة أهميته لتفعيل العمل الدعوي، وإثراء التجارب الدعوية، وتحقيق فاعلية الإعداد والتكوين الدعوي للدعاة، أي «بناء الداعية وتأسيسه وتكوينه وإعداده فكرياً ومنهجياً – فضلاً عن إعداده روحياً» ليتمكن من أداء رسالته في الدعوة إلى الله تعالى.

---

(١) سورة الزمر: ٦٧.

وأقصد بفقه السنن الكونية: معرفة الثوابـت الكونية فـي الخلـق والتكـوين الإلهي، والتي تتسم بالثبات الظاهري والباطني (الجوهري) لانتظام وحدة الكون وفق تقدير الله تعالى وقاهريته على نحو من الثبات وعـدم التغيـر والتحـول والانتقال.

**ومثال ذلك:**

١- انتظام حركة المجرات الكونية بما تشتمل عليه من مجموعات شمسـية قد تتشابه أو تختلف مع المجموعة الشمسية التي نعيش فيها.

٢- انتظام حركة الأجرام الكونيـة كحركـة الشـمس والقمـر والنجـوم والكواكب الدائرة في فلكهما. قال تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [(١)] ومن قبل هذه الآية قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾[(٢)].

٣- تعاقب الليل والنهار في ثبات وانتظام مستمر منذ بداية الخلق الإلهـي للكون إلى وقتنا هذا وإلى قيام الساعة وفق دلالات ومضامين الـوحي الإلهـي الكريم، قال تعـالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾[(٣)].

---

(١) سورة يس: ٤٠.

(٢) سورة يس: ٣٩.

(٣) سورة الإسراء: ١٢.

٤- الثبات الكوني: أي ثبات الكون على حالته التي خلقه الله تعالى عليها منذ أن خلقه الله تعالى؛ من حيث البنى التكوينية والجرمية، وإن كان العلم الحديث يثبت أن الكون مازال في حالة اتساع عن طريق التمدد الكوني بانشطار بعض الأجرام واستقلال المنشق منها بجرمه وطبيعته مع ثبات كونه منتظماً داخل الإطار العام للمنظومة الكونية[١]، وينتظم هذا قول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[٢].

٥- ثبات الأرض وتسويتها فرشاً وتمهيداً لتكون صالحة لحياة الإنسان وغيره من المخلوقات واستيعاب حركة الحياة اللحظية والمستقبلية بصورة مطردة ومنتظمة، وينتظم هذا قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[٣].

٦- تقدير الأقوات بأسبابها وتكوينها وأشكالها وأحجامها وتغاير طبيعتها واختلافها وتنوعها، قال تعالى في معرض إقامة الحجة على الكفار: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً

(١) راجع في هذا: الإسلام في عصر العلم. للشيخ الغمراوي، والإعجاز العلمي في القرآن الكريم للزنداني وغيرهما من البحوث التي ألفت في هذا الصدد. فقد تناولت تفصيلات ذلك.

(٢) سورة الذاريات: ٤٧.

(٣) سورة الذاريات: ٤٨.

﴿لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾[1]، ويدخل في هاتين الآيتين الكريمتين أسباب تكوين الأقـوات من تهيئة الأرض للإنبات وتكوين السحاب وتسخير الرياح لسوقها إلـى الأرض التي أراد الله تعالى لإنزال الماء الذي هو لازم من لوازم عملية الإنبات، ويدخل فيها تقدير الأقوات في البحار والمعادن في بـاطن الأرض ومصـادر الطاقـة اللازمة لحياة الإنسان وعمران الأرض.

٧- تماسك المادة وهي سنة لازمة لبقاء المادة واسـتمرارية بقـاء الكـون وتماسك أجرامه ومكوناته، وينتظم هذا قول الله تعـالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤١﴾[2]، وهو ما يمكن أن نطلق عليه سنة أو قانون «إمساك المـادة» وبدون هذا القانون أو السنة لا يتصور بقاء المادة، وبالتـالي لا يتصـور بقـاء الكون. ويدخل فيها قياساً إمساك المادة المكونة لأنسجة المخلوقـات والكائنـات الحية في الكون، ويمكن أن يطلق عليه «إمساك الأنسجة الحية مـن التحلـل» وبالتالي حفظها من التلف.

٨- تكوين الطاقة اللازمة لحركة الكون والحياة المستمدة مـن الشـمس أو مصادرها الأخرى ومنها الطاقة المتولدة من حركة المياه المتولدة ومن حركـة الرياح وضوء الشمس فيما يعرف بالطاقة الشمسية، والثروة البترولية في باطن الأرض، وما يمكن أن يستجد منها في أروقة البحث العلمي، وهي قائمة باقيـة يثبتها الحس ويبرهن عليها العقل، وكذلك المتولدة من الطاقة الحية والمركبـات

(١) سورة فصلت: ٩، ١٠.

(٢) سورة فاطر: ٤١.

العضوية، وينتظم ذلك كله نصاً وقياساً قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[1]، ويمكن تفسيره بـ «كمون الطاقة في المادة الحية» ويقاس عليها مصادر الطاقة الأخرى، أي «كمون الطاقة في مصادرها» المختلفة والمتنوعة، واقتضت حكمة الله تعالى منذ بدأ الخليقة أن يستفيد منها أهل كل عصر بما أوتوا من علم وفق معطيات العصور وتطور العقل البشري في البحث والتنقيب عن تلك المصادر في الكون.

٩- التوازن البيئي: وهو سنة إلهية تنتظم الكون لبقاء المخلوقات فيه والحفاظ على حياتهم ومقدراتهم، وإطاقة الحياة فيه، وقد عنيت الشريعة الإسلامية بالحفاظ على هذا التوازن فيما اعتبره أصولاً دلالية يتأسس عليها بقاء تلك السنة الإلهية والمحافظة عليها، وعدم العبث بها حتى لا تختل توازنات البيئة فتؤثر على وجود المخلوقات وحياتهم ومنافعهم.. منها ما ورد في السنة الشريفة عَنْ أَبِى الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ[2]، كما نهى (ﷺ) عن قضاء الحاجة في الطريق وفي الظل، واعتبره سبباً للعن صاحبه فقال (ﷺ): «اتقوا الملاعن الثلاثة البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»[3] ويدخل فيها عموم الظل، كما أن النظافة مبدأ من مبادئ الشرع الحنيف ويشمل نظافة الجسد وضوءاً واستحماماً، ونظافة

---

(١) سورة يس: ٨٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: باب النهي عن البول في الماء الراكد جـ ١ ص ٢٣٥ رقم (٦٨١).

(٣) سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، باب المواضع التي نهى النبي (ﷺ) عن التبول فيها جـ ١ ص ٧، ح رقم (٢٦) – المكتبة العصرية – صيد – بيروت – بدون تاريخ.

الفم والطهارة من الحدثين، وتنظيف المكان الذي يقطـن فيـه الإنسـان مـن القاذورات، ولهذا أثر طيب في إزالة الميكروبات والجراثيم من الجسم ومكـان الإقامة، كما ورد في السنة الشريفة أيضاً أن الرسول (ﷺ) أمر بإطفاء السـراج وتخمير السقاء[1]... وبإطلاق كان مبدأ الإسلام العـام «إن الله جميـل يحـب الجمال» فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُـهُ حَسَـنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَـالَ الْكِبْـرُ بَطَـرُ الْحَـقِّ وَغَمْـطُ النَّاسِ»[2].

هذا من جانب ومن جانب آخر في العلوم الحية، أو ما يطلق عليـه علـم الأحياء بصورة دقيقة قد اشتملت هذه العلوم على كثير من البحوث الحيـة فـي علم الحشرات والبكتيريا والجراثيم والفيروسات وغيرها من الكائنـات الدقيقـة والكائنات متناهية الصغر فيما يعرف بالميكروبيولوجي، ومباحث المادة الحيـة وتخمرها والمسكرات والمخدرات ومن الأخيرة نتج علم التخدير الـذي يـؤثر على الخلايا العصبية المتعلقة بالحس والشعور والاستفادة منهـا فـي التطبيـب وإجراء العمليات الجراحية، على أن مبدأ التعامل مع هذه الكائنـات والعمليـات الحيوية يكون في إطار ما تقتضيه حاجة الإنسان الضرورية بميزان وسط ينتظمه قول الرسول (ﷺ) في المطلق: «لا ضرر ولا ضرار» [3]، لاسيما وقـد ثبـت

(١) مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون جـ ٣٤/٣٧٢، ح رقم (٢٠٧٧٥) – مؤسسة الرسالة، ط: أولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: باب تحريم الكبر وبيانه ح رقم ٢٧٥.

(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه، تحقيق/محمد فؤاد عبد الباقي، باب من بنى في حقهما يضر جاره جـ ٢ ص ٧٨٤، ح رقم (٢٣٤١) – دار إحياء الكتب العربية – بدون تاريخ.

علمياً من خلال البحث في علوم الحياة والمادة الحية المستخلصة منها أن منها ما هو مفيد للإنسان ومنها ما هو ضار به، ولذا كان من مقتضى الحكمة الإلهية في التشريع تجنب المضار بكل صورها والاستفادة بكل نافع وفق ما تقتضيه الضرورة..

ويدخل في هذين المبدأين التشريعيين «النظافة من الإيمان»، و«لا ضرر ولا ضرار» الحفاظ على نظافة البيئة المحيطة بالإنسان من كل الملوثات المادية والسمعية والبصرية المضرة بالإنسان، والمادة الحياة والبيئة والحياة في الكون والمؤثرة في السلوك الإنساني المؤثر على مسارات الاعتقاد والتعبد والالتزام بشرع الله تعالى، وحتى لا يكون الإنسان شذوذاً في كون يسبح بحمد الله.

إن ما ذكرناه من السنن الكونية لا يعدو كونه نموذجاً أو أمثلة توضيحية للوقوف على فقه السنن الكونية، وليس على سبيل التفصيل، فثمة سنن كثيرة في الكون هدى الله تعالى المتأملين والناظرين إليها، وثمة سنن وآيات كونية باهرة وعد الله تعالى بكشفها للإنسان في مستقبل الزمن إن اجتهد في تأمله وأصاب في إدراكه، وأزال عنه معوقات الإدراك.. قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[1].

**مفهوم الظواهر الكونية:** نعني بالظواهر الكونية تلك الأعراض الطارئة على جوهر الكون وثبات سننه بصورة قوية تمثل ظاهرة بارزة لوسائل الحس الإدراكي الإنساني وتستوعبه العقول في ذهول، وتمثل خرقاً جزئياً مؤقتاً لثبات السنن الكونية.

---

(١) سورة فصلت: ٥٣.

**على أن المقصد من حدوث هذه الظواهر الكونية يتمثل فيما يلي :**

١- التذكير بقادرية الله تعالى وهيمنته على كونه.

٢- التدليل على طلاقة القدرة الإلهية والبرهنة علـى قاهريـة الله تعـالى وتصريفه وتدبيره شئون كونه.

لفت أنظار الناس إلى إمكانية زوال حالة الثبات الكـوني وإيقـاع العقوبـة الإلهية.. فقد يكون ظاهرها الرحمة وفي باطنها العذاب.

ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾[1].

ومن أمثلة هذه الظواهر الكونية الرعد والبرق والزلازل والبـراكين ومـا يتبعها في الطقس والمناخ، وقد أهلك الله تعالى الأمم السابقة التي كذبت رسـلها وكفرت برسالات ربها بإحداث مثل هذه الظواهر وتعذيبهم وإهلاكهم بها. قـال الله تعـالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

(١) سورة الملك:١٦ – ١٨.

﴿قَدِيرٌ ۝٢٠﴾[1]، وثمة آيات عديدة في القرآن الكريم تتحدث عن هذه الظواهر فليرجع إليها.

ومع أن فقه السنن والظواهر الكونية والإنسانية متعلق من طرف بمنهج الدعوة الاسترادادي «التاريخي» باعتباره واقعاً عاصره الإنسان منذ خلافته في الأرض إلى وقتنا هذا وإلى أن تقوم الساعة، فإن الفهم الدقيق والإدراك الكامل لهذه السنن وتلك، متوقف أيضاً على فهم منهج الدعوة الوصفي.

وفيما يلي نبحث هذا المنهج ونقف على دلالاته النصية:

(١) سورة البقرة: ١٧ – ٢٠.

# المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- أديان العالم للبروفسور. د هوستن سميث، أستاذ الفلسفة وعلم الأديـــان في عدة جامعات أمريكية، ترجمة سعد رستم – دار الجسور الثقافية، ط: أولـــى ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

٣- الفصل في الملل ولأهواء والنحل لابن حزم، تحقيق / أحمد السيد ســيد أحمد – المكتبة التوفيقية – القاهرة – بدون تاريخ.

٤- الدين «بحوث ممهدة لدراسة الأديان» د / محمـــد دراز – دار القلـــم للنشر والتوزيع – القاهرة، ط: ٥ / ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

٥- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام، د / علي عبد الواحد وافي – نهضة مصر ١٩٨٤ م.

٦- التفكير الديني في العالم قبل الإسلام – مطالعة في مكتبة علماء الملايو – د / جامع أوانج كابي رحمات بن داتو بحر الدين، عرض وترجمة وتعليـــق د / رءوف شلبي – دار الثقافة – الدوحة ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م.

٧- الإنسان والأديان دراسة ومقارنة، د / محمد كمال جعفر – دار الثقافة – قطر، ط: أولى ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٥ م.

٨- صحيح البخاري – دار الحديث – القاهرة ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م.

٩- تفسير القرآن العظيم، الإمام ابن كثير، تحقيق / سامي بن محمد سلامة – دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: ٢ / ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

١٠- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د / وهبة الزحيلـــي – دار الفكر المعاصر – دمشق، ط: ثانية ١٤١٨هـ.

١١- زهرة التفاسير، للإمام محمد بن أحمد بن مصطفى المعـــروف بـــأبي

زهرة – دار الفكر العربي – القاهرة – بدون تاريخ.

١٢– صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون تاريخ.

١٣– صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط – مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: أولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

١٤– معرفة السنن والآثار، للإمام البيهقي، تحقيق / عبد المعطي أمين – الناشر جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي – باكستان – دار قتيبة – دمشق – دار الوفاء – القاهرة، ط: أولى ١٤١٢ هـ – ١٩٩٩ م.

١٥– جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق / أحمد محمد شاكر – مؤسسة الرسالة، ط: أولى ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠ م.

١٦– التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د / محمد سيد طنطاوي – دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ط: أولى ١٩٩٧ – ١٩٩٨ م.

١٧– الإسلام في عصر العلم، د / محمد الغمرواي، تقديم د / عبد الحليم محمود – دار الإنسان للتأليف والترجمة والنشر – القاهرة، ط: ٤ / ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م.

١٨– سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة ط: أولى ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

١٩– سنن ابن ماجة، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء الكتب العربية – بدون تاريخ.

٢٠– لسان العرب للعلامة ابن منظور – دار المعارف – بدون تاريخ.

٢١– مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي – المطبعة الأميرية – القاهرة ١٣٤٥ هـ – ١٩٢٦ م.

# فهرس الموضوعات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدمة | ٣ |
| قواعد منهج الدعوة الاسترادادي وخصائصه | ٥ |
| **المبحث الأول:** قواعد المنهج الدعوي الاسترادادي | ٦ |
| **أولاً:** السرد والتوثيق | ٦ |
| **ثانياً:** المقارنات النصية | ٨ |
| **ثالثاً:** تجريد الأحداث والوقائع التاريخية | ١٠ |
| **رابعاً:** فقه المضامين الروائية | ١٣ |
| التحديات التاريخية لفقه المضامين الروائية | ١٥ |
| **خامساً:** استنطاق الواقع التاريخي وتجنب الغرض المعرفي | ١٧ |
| **المبحث الثاني:** خصائص منهج الدعوة الاسترادادي | ١٩ |
| **أولاً:** البناء المعرفي التراكمي | ١٩ |
| **ثانياً:** إعلاء القيم التاريخية | ٢٣ |
| **ثالثاً:** فقه الواقع الإنساني والكوني | ٢٨ |
| محاور فقه الواقع الإنساني والكوني | ٢٩ |
| **أولاً:** فقه الطبيعة الرسالية | ٣٠ |
| فقه طبيعة الإنسان | ٣٣ |
| **أولاً:** محور التكوين | ٣٣ |
| أ– البنية التكوينية المادية | ٣٣ |

| | |
|---|---|
| ب– البنية التكوينية الروحية | ٣٨ |
| **ثانياً:** فقه السنن الإنسانية والكونية | ٤٢ |
| **أولاً:** سنن الله تعالى الإنسانية | ٤٣ |
| مفهوم السنة | ٤٤ |
| **أولاً:** السنة في دلالات الاشتقاق اللغوي | ٤٤ |
| **ثانياً:** في الاصطلاح | ٤٥ |
| سنتا الإيجاد والإعدام الإلهيتين | ٤٧ |
| القياسات العقلية وفهم سنتي الإيجاد والإعدام | ٥٢ |
| **أولاً:** قياسات العقول الممكنة تصوراً وتدبراً | ٥٢ |
| **ثانياً:** القياسات العقلية الفاسدة | ٥٣ |
| سنن العناية الربانية | ٥٦ |
| حب المنشأ | ٦١ |
| الاجتماع البشري | ٦٤ |
| **أولاً:** التنافس والغبطة | ٦٥ |
| **ثانياً:** التمايز والتغايظ والصراع | ٦٧ |
| **ثالثاً:** سنة التداول والتدافع والتمكين | ٧٧ |
| **ثانياً:** فقه السنن والظواهر الكونية | ٨٢ |
| مفهوم الظواهر الكونية | ٨٩ |
| **فهرس المصادر والمراجع** | ٩١ |
| **فهرس الموضوعات** | ٩٣ |